اهداءات ١٩٩٨
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

معاً على الطريق



خالد محمد خالد

الطبعة الثانية



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

معاً على الطريق
خالد محمد خالد

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية ويأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

نظراً للإقبال الجماهيرى على هذا الكتاب فى طبعته الأولى، حيث نفذت الكمية المطبوعة منه خلال ساعات قليلة، رغم ضخامة الكمية المطبوعة. فقد رأت اللجنة العليا المنظمة لمشروع مكتبة الأسرة برئاسة السيدة سوزان مبارك - حرم السيد رئيس الجمهورية ورئيس اللجنة العليا إعادة طرحه فى طبعة ثانية بناء على رغبة القراء الذين طالبوا بالمزيد من هذه الأعمال الخالدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا ما أريده تماماً . .

أن أقول للذين يؤمنون بالمسيح ، وللذين يؤمنون بمحمد :

— برهان إيمانكم إن كنتم صادقين . أن تهبوا اليوم جميعاً لحماية الإنسان . . وحماية الحياة . . !

وليس هذا الكتاب تأريخاً للمسيح ، ولا تأريخاً للرسول . . فتاريخهما قد بسط بسطاً لا يشجع على التكرار . .

وإنما هو تبيانٌ لموقفهما من الإنسان ، ومن الحياة . . أو بتعبير أكثر سداداً . . موقفهما « مع » الإنسان . . و « مع » الحياة . .

* * *

لقد أخذني حنينٌ واعٍ ، إلى الكتابة عن الرسول ، وعن المسيح . .
وفي ذات الوقت ، كان يناديني الواجب الذي كرّستُ له ، أو أريد

ـ دوما ـ أن أكرس له حياتى . . وهو : الإسهام فى حماية الإنسان ، والحياة ، من الكذب . . ومن العجز . . ومن الخوف . . .

وفى اللحظة التى يعطى فيها وجدان الكاتب ، إشارةَ البدء ، وَجدتُنى أكتب هذا الموضوع ، تحت هذا العنوان . . !

ولم أسأل نفسى ، كيف تمّ هذا اللّقاء السعيد بين رغبتى فى أن أكتب عن محمد ، وأخيه ، ورغبتى فى الكتابة عن الإنسان ، والحياة . . !

فأنا أكاد أعرف ـ تماماً ـ لماذا جاء محمد . . ولماذا جاء المسيح . .

وإنه فوق أرض فلسطين ، شهد التاريخ يوماً ، إنساناً شامخ النفس ، مستقيم الضمير ، بلغ الإنسان فى تقديره ، الغاية التى جعلته ينعَتُ نفسه بـ « ابن الإنسان » . . ! !

وابن الإنسان هذا ، ذو العبير الإلهى . . تتركنا كلماته ، ويتركنا سلوكه . . ندرك إدراكاً وثيقاً ، الغرضَ العظيم الذى كابَد تحقيقَه ، ألا وهو : إنهاض الإنسان ، وإزهار الحياة .

ومن بعده بستمائة عام . . تأخذ الأرض زينتها لتستقبل إنساناً آخر . ما يكادُ يُسأل عن أفضل الأعمال وأبقاها ، حتى يجيب : بذل السلام للعالَم . . وأن تعيشوا ـ عباد الله ـ إخواناً . . ! !

ويغار على الإنسان . . حتى إن فؤاده الذكىّ ، ليكاد يتفطّر أسًى على موبقاته . . ويتفجَّر أملا فى مستقبله ، وثقة فى قدْرَاته . .

أيها الإنسان . .

لماذا تسجد للأصنام . . ؟ ؟ ؛ ولو كان ثمّة من يُسجد له غير الله . . لكنت وحدك ذلك المعبود . . !

ولماذا تذِلُّ للسّادة ، والأعلين . . ؟ ؟ وأنت هنا ، وفى هذه الأرض ، خليفة الله . . !

ويا أيها الناس . .

لماذا تعيشون طبقات . . ؟ ؟ وقد خلقكم الله سَواسية كأسنان المُشْط . ولم يجعل لابن البيضاء على ابن السوداء فضلٌ إلا بالعمل والتقوى . . !

ويحب الحياة حبّ عاشِق عظيم . . فيستقبلها عند صُبح النهار ، وممساه . . وفى ناشِئة الليل ، وأُخراه . . ويعانقها فى الزرع الطالع . . وفى المطر الهاطل . .

* * *

وبعد ، فعلى الصفحات المقبلة ، سنلتقى بفيض من اللّفتات الذكيّة ،

والتوجيهات السديدة التى نحّت عن الإنسان كثيراً من مثبطاته .
وسنبصر فى ضياء اللمسات الرفيعة الهادية ، جميع الجلال الذى أراده للإنسان وللحياة ، محمد ، والمسيح . .

ومن سلوكهما هذا ، وتوجيهاتهما تلك ، سيأخذ وَلاء المؤمنين بالإنسان وبالحياة ، زاداً باقياً .

وحسبنا هذا ، حين نذكرهما فى مقام التأريخ والتمجيد . . وفى مقام القدوة والتأسِّى ؟

خالد

الفصل الأول

سقراط ، يقرع الأجراس

كانا نبأ مُستسرًّا فى مشيئة الله ، لم يُعرف بعد . . ولا تنبأ بقدومها أحد . .

وكانت الحياة ماضية على نهجها ، وبين الحين ، والحين ، تقدم للناس نماذج سديدة من البشر . يأخذ ذووها مكان الرواد والقدوة . أمام الصفوف الزاحفة من الخلق . وتضربهم الحياة مثلا لسعيها الحثيث فى سبيل التفوق ، والكمال .

وعلى حين بغتة ، ومن بيت متواضع يقيم داخل جدرانه رجل فقير يحترف نحت الحجارة ، وصنع التماثيل . . فتحت الحياة باباً ضيقاً ، ليخرج منه إلى الدنيا إنسان جاحظ العينين أفطس الأنف ، قد زهدت قسمات وجهه فى الوسامة ، فازّاوَرَتْ عنها ، وتلفعت بخشونة مستأنسة . . وترقّب الناس فى لا مبالاة ، شفتيه الغليظتين لينظروا ما وراءهما ، إن كان وراءهما شىء .

واقترب الرجل فى خطوات وئيدة ثابتة ، ونظرات حصيفة طيبة . وتحركت شفتاه الغليظتان فى أناة ، وتحولت ابتسامات الناظرين إليه ، إلى قهقهات عالية :

— يا له من ساذج . . لماذا لا يفتح فمه ويريحنا . . ؟ !

وواصل تقدمه ، خطوة ، خطوة . وفى الجموع سر غامض يدعوها لتفسح له الطريق ، حتى إذا شقها صفّين طويلين ، وأشرف على

وجودها . بادَهَ الوجوه المنتظرة بسؤال :

— لماذا لا تبحثون عن الخير ؟ ؟

— لأننا نعرفه ، يا سقراط .

— إذن ، فلماذا ما دمتم تعرفونه ، لا تفعلونه . . ؟ ؟

— أليس يكفى أن نكون خبراء فى حذقه يا سقراط . . ؟ ؟

— كلا ! ليس الخبير فى الخير من يعرفه ، بل من يملكه . . ! !

ثم إنى أشك فى مجرد خبرتكم به ، ومعرفتكم له . . فهل تعرفونه حقاً . . ؟ ؟

— أجل ، أجل . نعرفه كما نعرف أنفسنا .

— إذن ، فأنتم تعرفون الغرض الحقيقى لحياتكم . . ؟

— نعم . . أن نعيش ، يا سقراط .

— لكن البهائم تعيش . .

— نعيش عيشة صالحة ، يا سقراط . .

وصاح سقراط وسط لجّة من الحبور :

حسن هذا . . حسن كثيراً . . وإذن ، تعالوا نعرف ما هى المعيشة الصالحة . . فعندئذ — فيما أظن — سنكون قادرين على أن نعرف ، ما هو الخير .

ثم أخذه ما يشبه الرُعَوَاء ، فحنى رأسه قليلا ، وأسبل جفنيه ، وبعد حين عاد إلى وضعه الأول ، ليقول لهم :

« إنها الإشارة الإلهية تعاودنى .. إنها تأمرنى أن أتعاون معكم على معرفة الحق ، لأنه لا سبيل للعمل به قبل معرفته » ..

* * *

ماذا كان هذا الرجل سقراط .. ؟؟

وما علاقته بحديث عن محمد ، والمسيح .. ؟؟

أما علاقته بهذا الحديث ، فَجِدٌ وثيقة ، وعما قريب نتبينها .

وأما هو فأبو الفلسفة ، الذى علم الناس أن يبحثوا ، ويفكروا — والذى لا يزال الفكر الإنسانى يحيا فى ضياء باهر من عقله ، ومن عقول تلامذته .. !

ولكن ، أليس عجباً أن أبا الفلسفة هذا ، الذى زلزل سكينة العقول الهاجعة بسؤاليه الدائبين : كيف .. ؟ . ولماذا .. ؟ والذى أطلق عقله الممحص الجوّاب ، يفضُّ مغاليق الأسرار ، ويناقش المسلّمات .

أليس عجباً أن يصغى لصوت آخر ، له طبيعة غير طبيعة العقل ، ذلكم هو صوت الوحى .. أو ما أسماه هو : « الإشارة الإلهية » .. ؟ !

إن هذه أولى علاقات سقراط بحديثنا ، وليست آخرها .. وإن فى حياته معالم كثيرة جديرة بأن نتملاها ونشاهدها ، فلنعش لحظات فى صحبة هذه الحياة .

لقد ازدهرت « أثينا » برجلها المضىء ، وتحولت بذكائه الثاقب ، وروحه الحى ، إلى حديقة زاخرة بثمار المعرفة وقطوفها الدانيات .

وآناء الليل ، وأطراف النهار ، أخذت شوارعها ، وأنديتها تشهد عقلا فذا يعبرها دواما ويغشاها . كانساً أمامه لغو « المشائين » وسفسطتهم . وهاتفا بأسمى ما فى الإنسان كى يستيقظ ويفيق .

وإنه ليناقش الناس فى كل شيء . ويدير الحوار فى غير تهيب ، حول الآلهة ، والفضيلة ، والخير ، والشر ، والجمال .. ثم لا يفتأ يُذَكِّر بأننا نحمل داخل ذواتنا شيئاً ، هو أثمن ممتلكاتنا .. شيئاً عظيما وقويماً ينتظر منا أن نعرفه ونجيد معرفته : ذلك الشيء ، هو أنفسنا .

إننا لسنا هملا ، ولسنا نَفَصَ الدهر ، ولا نتاج المصادفات ، بل نحن أبناء مشيئة كبرى اصطنعتنا لغرض كبير .. ونقطة البدء فى مسيرنا الطويل هى معرفة أنفسنا .

ومضى ، يلقح العقل الإنسانى ، ويهدى القلب ، حتى جاء اليوم الذى شق فيه على الأرض أن تتحمل وطأته الجليلة .. وتقدم بعض الشريرين كى يضعوا الختام اللائق لحياة باهرة ، يراد لها من بارئها أن تكون مثالا يُحتذى ، وعزاء يلتمس ، ومشعلا يهدى إلى خير ما فى الحياة من فضائل باقية : الصدق .. والبذل ، والمثابرة .

ويجتمع قضاة أثينا ليحاكموا الفيلسوف بتهمتى الهجوم على الآلهة . وإفساد الشباب .

وساق الاتهام كل ما استطاع حشده من فنون الإفك وصنوفه .

وتقدم الإنسان الصادق ، الباذل ، المثابر ، وانفرجت شفتاه الغليظتان

فى غير بطء هذه المرة .. كأن صاحبهما يعانى شوقاً إلى مصيره الذى أسماه الناس الموت ، وأسماه هو الانتقال ، أو السفر .

وفى هذه اللحظات أكثر من سواها ، وجد سقراط حقيقته وعرفها . فأراد – قبل أن يمضى – أن يلخص كل دوره ومهمته . وأراد — قبل أن يمضى — أن ينفخ فى هـذا الدور من روحه الخليق بالخلود ليبقى دوره حياً من بعده . يمشى فى الدروب مثلما كان يمشى . . ويغشى الأندية التى كان يغشاها . . ويتحدث إلى الناس الذين طالما تحدث إليهم . . ويلقى نفس الأسئلة . . ويؤدى ذات الرسالة التى كان صاحبه يؤديها حياً .

هنا لك تقدم فى ثقة أزعجت خصومه ، وقال :

— « يا قضاة أثينا . .

« كم كان سلوكى سيبدو سيئاً ، لو أننى عصيت الله فيما أعتقـد أنه يأمرنى به ، فتنكصت عن أداء رسالة الفلسفة ، وتوقفت عن دراسة نفسى ، ودراسة الناس ، وفررت مما كلفنى به خشية الموت . . وأنا الذى حين أمرنى القواد فى « پوتيديا » ، و « دليوم » أن ألزم موضعى لزمتـه ، وواجهت الخطر والموت ..

« أيها الأثينيون :

« إنى أمجدكم وأحبكم . ولكن لأنى أطيع الله أكثر مما أطيعكم ، فلن أدع الفلسفة ما دمت حياً . سأواصل أداء رسالتى . سأدنو من كل من يصادفنى فى الطريق وأهيب به قائلا : ألا تخجل يا صاح من انكبابك على طلب الجاه والثروة . وانصرافك عن الحق والحكمة .. وعن كل ما يسمو بروحك ..

« إن من يحارب مخلصا فى سبيل الحق ، لن يمتد به الأجل إلى حين ، ومن أجل هذا ، فأنا لا أخاف الموت . . أجل إنى لا أخافه ، ولا أعرف طعمه . ولعله شىء جميل . غير أنى على يقين من أن هجران واجبى ، شىء قبيح .. ولذا ، فحين أخيّر بين الموت الذى يحتمل أن يكون جميلا ، وترك الواجب الذى هو من غير شك قبيح ، فإنى لا أتردد فى اختيار الأول فوراً .

« بنى أثينا . .

« منذ طفولتى ، يلازمنى وحى . . هو عبارة عن صوت يطوف بى ، فينهانى عن أداء بعض ما أكون قد اعتزمت أداءه .. وإن جاز أن أسوق لكم تشبيها مضحكا ، لقلت إنى ضرب من الذباب النشيط ، أرسله

الله لهذه الأمة التى هى بمثابة جواد ثقيل الحركة .
ولابد له فى حياته من حافز ..

« أنا ذلك الحافز .. ولقد وجدتم منى ناقداً منبها ، يثابر على فحص آرائكم ، ويحاول إقناعكم عن حق ، بأنكم تجهلون بالفعل ، ما تتوهمون عرفانه ..

« وإن الخير الأعظم لكم ، لهو أن تتركونى أُوَاصِلُ رسالتى . أما إذا أردتم تبرئتى على أن أترك البحث عن الخير ، وعن الحق ، فسيكون جوابى : أنا شاكر لكم أيها الأثينيون .. ولكنى أوثر طاعة الله الذى أعتقد أنه ألقى على كاهلى هذا العبء الجليل » .

* * *

وأخيراً ، يحكم على سقراط بالموت .. وتتهيأ له فرصة الفرار والنجاة .

وهنا ، مشهد آخر لابد من وقفة تجاهه ..

مشهد نفر من تلامذته ، يجلسون إليه داخل سجنه ، ويخبرونه فى جذل ، أنهم أعطوا السجان رشوة وافق بعدها على تهريبه . وأنهم هيأوا له أسباب السفر إلى « تسالى » حيث يعيش هناك مع رسالته الكبرى .

وكأنما حسبوا أنهم يزفون إليه بشرى . ! وما كادوا يفرغون من حديثهم ، حتى مضى على طريقته يفند رأيهم فى أناة ، كأنه معلم فى مدرسة، وقته متسع ، وفرصته مواتية . . !

وليس محكوماً عليه بالإعدام ، سيعطى بعد حين قريب كأس السم ليتجرعه ، ويسيغه . . !!!

— « .. ولكن لماذا أهرب يا — أقريطون — من الموت ؟ ؟ طبعاً ، لأظفر بالحياة . .

حسن هذا .. وإذن فلنبدأ بأن نعرف ، ما الحياة .. ؟ »

ثم ينثال حديثه الواثق العذب ليخبرهم أن مجرد الحياة ، أمر لا يعنى الرجل العاقل . . وإنما تهمه فقط ، الحياة التى تلتزم الصواب . فهل الهروب صواب . . ؟ ؟

— « .. ثم كيف أستطيع — يا أقريطون — إذا ارتكبت رذيلة الجبن ، أن أتحدث عن فضيلة الشجاعة » .. ؟ !

ويقتنع تلامذته . بل يخجلون . .

وحين يسألونه ، على أى نمط يحب أن يدفن ؟

يجيبهم :

« على أى نمط تشاءون . إنكم ستدفنون الجسد وحده ..

أما الروح . فذاهبة إلى مكان يبعث فيها السرور .
هناك بين المباركين .. !
لن أمكث بعد مماتى » ...

وفى الميقات المعلوم . يجاء له بكأس صغيرة ، تحمل فى ذَوْبها ، منيته . فيأخذها بيد ثابتة ، ويدفعها إلى فمه .. ثم يتمهل قليلا ريثما يدعو « اللهم اجعلها رحلة مباركة سعيدة » .

ويتجرع السم .
ويموت سقراط .

أو على حد تعبيره هو : يموت جسده سقراط .. !

* * *

لماذا بدأنا موضوعنا بهذه البداية الطيبة . ؟

ومرة أخرى .. ما علاقة سقراط بحديث عن محمد ، والمسيح .؟؟؟

إن الذين تفتحت بصائرهم على قسمات هذه الحياة التى عرضناها فى إيجاز شديد ، لن يجدوا أنفسهم فى حاجة إلى سؤال كهذا .

* فسقراط فيلسوف لا نبى . وهو يعلن أنه لن يذر الفلسفة ومحاورة العاكفين على أساطير الأولين ما دام فيه نفس يتردد .

* وهو لا يسأل الناس على تعليمهم أجراً ، ويرفض كل مثوبة مادية تقدم إليه .

* وهو كفيلسوف . يهمه أن يعرف .. وأن يجمع معارفه بنفسه . وبجهده العقلى المتحرر .

* ثم إنه كان يحمل عقلا شامخاً وشاهقاً لا يتلقّى ، وإنما يناقش .. ولا يقلد ، لـكنه يخلق .

* وهو ضد الأحكام الجاهزة ، والآراء المسبقة . ولا يرضى للناس أن يقولوا ــ ولو للصواب ذاته ــ سمعنا وأطعنا .. بل يجب عليهم أن يقفوا .. وينظروا .. ويسمعوا .. حتى إذا تبين لهم أنه الحق أخذوه وعانقوه .

* وهو لم يقل للناس : « اعرفوا ربكم » بل قال لهم ، وفى إلحاح دائب ذكى : « اعرفوا أنفسكم » .

سقراط ، إذن ، رجل عقل يستعمل عقله فى أوسع نطاق .. ويدعو الناس لاستعمال عقولهم . وإنه ليحترم كل ما للعقل من حق فى المناقشة . والمعارضة . بل وفى الشك .. ومع هذا ..

* فهو يصغى كثيراً لصوت آخر غير صوت العقل . هذا الذى أسماه «الإشارة الإلهية» أو «الإشارة المقدسة» أى أن الفيلسوف الذى جعل العقل مصدر تفكيره..قد جعل الوحى أو الإلهام الضاغط موضع احترامه وتلبيته،

* وهو أيضاً ، يفسر الحياة تفسيراً دينياً ، فليست دنيانا هذه هى المنتهى .. بل واحة فى الطريق . وليست نهايته .

ويفسر الموت بمثل ذلك ، فهو عنده دفن للجسد وحده ، أما الروح فلها الخلود فى عالم يسرّ الصالحين .

* وهو يحسّ للموتى قيامة وبعثاً . . ينهضون من قبورهم ، ليستأنفوا رحلتهم وحياتهم .

ألم يقل لأقريطون : « لن أمكث بعد مماتى » . ؟ !

* وهو قبل هذا ، يؤمن بألوهة طيبة ، وربوبية قادرة ، تدعو الناس إلى معرفة الحق ، وفعل الخير .

وهكذا ، يتبدّى لنا « سقراط » بذاراً جديداً مترعا بالحياة ، تزرعه السماء فى الأرض ، ليؤتى أشهى وأبقى ثمارها .

ويقف الفيلسوف ، هادياً يقرع أجراس الحياة العظيمة ، وسط بشرية غافية ، كى تلقى سمعها ووعيها ، إلى الرنين الصادق الذى أهلّت مع هذا الرجل ، عصوره وأزمانه .

ولسوف يظل العالم ثملا — فى غير غيبوبة — بعذوبة ذلك اللحن السقراطى إلى ما شاء الله .

ولكن ، بعد خمسمائة عام من موت العازف العظيم وسفره ، سيفد إلى الحياة هاد جليل ، ومبدع فذّ ، يمشى الهوينا فى دروب فلسطين ، وسهولها.

ثم بعد ستمائة عام أخرى .. يزور الدنيا .. هاد آخر جِدّ عظيم .. يعبر شعاب مكة .. ويصعد فى جبالها متأملا وضارعاً .. حتى إذ وجد اليقين الذى يبحث عنه .. وحتى إذا قال له الوحى : « قم فأنذر » .. نهض فى الناس نذيراً وبشيراً ..

ولكن إنسان أورشليم .. وإنسان مكة .. يختلفان عن إنسان أثينا

فالأخير ، يلبس رداء الفلسفة ، ومحمد والمسيح ، يلبسان رداء الرسالة .

وهنا ، وبعد الحديث القريب الذى سقناه ، نلتقى بالحكمة التى نبحث عنها . والتى من أجلها وقفنا هذه الوقفة مع سقراط .

فالفيلسوف الذى ترك فى الفكر الإنسانى كله طابعه الأصيل الفريد ، والذى لا يزال مكانه من فلاسفة عالمنا ومفكريهم ، مكان الأستاذ ، والمعلم .. كان يؤمن بالغيب .

يؤمن بالله .. وباستئناف الحياة بعد الموت .. وبوحى يتلقاه المصطفون الأخيار عن الروح الأكبر المشع فى هذه الأكوان العظيمة .

صحيح أنه حارب الآلهة ، ولكنه لم يحارب الإيمان الذكى .. والآلهة الذين حاربهم هم أولئك المتربعون فوق جبل « أولمب » يتعاركون ، ويتبادلون كل ما يتبادله صغار الناس من أحقاد ، ومؤامرات ، ومكايد .. !

شَهَّر « سقراط » بهذا النوع من الآلهة ، وبهذا الطراز من الإيمان .. واحتفظ بإيمان ذكى بألوهة طيبة عظيمة .

وفى أى العصور مارس الفيلسوف الكبير المتمرد ، إيمانه ذاك .. ؟

فى أعظم عصور العقل السالفة ، معرفة وإشراقاً .. العصر الذى استطاع العقل الإنسانى خلاله — ومن غير أن تكون معه مختبرات وأجهزة — أن يحسّ حركة الأرض ، وكرويتها ، ويستشرف داخل الذرات التى تبدو ضئيلة تافهة ، شموساً هائلة ، وطاقات مذهلة .

وإذن ، فعندما يجىء بعد رحيل سقراط بزمن يطول أو يقصر من يدعو

الناس للإيمان بالغيب العظيم، فإن واجبهم أن يقفوا .. وينظروا .. ويسمعوا

أجل ، لا أقل يومئذ ، من أن يسألوا أنفسهم :

لماذا لا يكون هذا حقا ..

ألم يحدثنا بمثله من قبل ، رجل خارق الذكاء ، صادق الخلق ، كبير الإيمان بالعقل ، وبالمنطق..شديد الولع بالحوار، وبالشك ، اسمه : سقراط ..؟

أجل . لماذا لا يكون حقا .. ؟

أو على الأقل ، لماذا لا نصغى إلى ما يقولون .. ؟

صحيح أن سقراطا ، حدثنا بأشياء ، اكتشفنا فيما بعد خطأها .. بيد أنها كانت من تلك التفصيلات التى تشبه الافتراضات التى يتوسل بها العلماء لاكتشاف نظرياتهم حتى إذا برزت النظرية كحقيقه حية لم يعد لتلك الافتراضات قيمة ، ولم تؤثر « وهميتها » فى قيمة النظرية وصدقها ، على أن جميع القِيَم التى والاها سقراط ، وآمن بها وبَشَّر .. كالحق ، والخير، والجمال .. لا تزال ، وستظل خالدة ، صادقة ، شامخة ، لا يزيدها العلم إلا ألقًا وقوة .

فلم لا يكون الإيمان كذلك ، سيما والعلم لم يستطع أن يصل إلى يقين بنقيضه ..

وبعد .. ففى سقراط ، التَقى العقل ، والوحى ..

وفى سقراط : بَشّرت الفلسفة بالدين ..

الفصل الثاني

الهداية ترسل سفائنها

أكان سقراط وحده يرفع لواء الخير والمعرفة ويقرع الأجراس :

كلا .. ففى أقطار شتى من الأرض ، كانت الهداية ترسل سفائنها وفى الأفق العالى البعيد ، كانت الشُّرُع تتعانق ، وفى عباب الحياة الإنسانية ، كانت السفن تمضى ماخرة ، هادرة ، تحمل للناس رسالات الهدى ، وفلسفات الخير والصلاح .

فَقَبْلَ « سقراط » بمئات كثيرة من السنين ؛ كانت هناك فى مصر القديمة ، وفى أشور ، وفى بابل ؛ محاولات مُثابِرةٌ لاستجلاء الرُّشد والخير .

وكان « اخناتون » فى مصر القديمة يعلن أن الإله واحد .. ويقاوم تعدد الآلهة وعبادة الأوثان . ويناجى إلهه الواحد — آتون — بقوله :

(أنت جميل ، وعظيم ، ومتلألىء ، وَمُشرق فوق
كل أرض .
وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك) .

وكان الفكر المصرى القديم يملأ أرضه وبلاده هتافاً بقِيَم الحق والخير ، داعياً للعدل ، والاستقامة ، والمساواة ، والرحمة ، ومُبشراً بالخلود فى الدار الآخرة .

وكان ينادى الناس باسم الإله ، فيقول :

« لقد صنعتُ الرياح الأربع ، لكى يتنفس منها
كل إنسان كزميله ..

« لقد صنعتُ مياه الفيضان العظيمة ، لكى يكون للفقير فيها حق كالعظيم ..

« لقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من الناس .. »

وكان يقول لهم :

(إن الصدق جميل ، وقيمته خالدة)

* * *

(لا تتكلمن مع إنسان كذباً ، فذلك ما يمقته الله ..

(ولا تَفْصِلَنَّ قلبك عن لسانك ، حتى تكون كل طُرُقِك ناجحة) .

* * *

وقبل سقراط بثلاثمائة عام ، وتحت سنوح الهملايا فى شمالى البنغال ، كان فتى وسيم الطلعة ، ريَّان الشباب ، يرفل فى كل ما تحفل به الدنيا من مناعم ، ومطاعم ومباهج ، ومسرات .. وذات يوم .. وهو يمتطى صهوة جواده ، ويزاول نزهته اليومية ، أقحم القدر على طريقه بعض نماذج من البشر ، ينطوى أصحابها على أسًى ممض فاجع .. !

ولكأنما كان هذا المشهد ، نداء الغيب لـ « جوتاما » أو « بوذا » كما سيدعى فيما بعد .

ففى أمسية ذلك اليوم ، أنفذ فى هدوء وعزم ، ما أسَرّه فى نفسه ضحى .. وفى بهجة لليل ، انساب كالأنفاس الوادعة من فراشه وقصره ودنياه الباذخة ، وخرج ومعه خادمه ، حتى إذا بلغا شاطىء النهر ، قطع « بوذا » ذوائبه .. ونضا عنه ثيابه المترفة ، وما يتحلى به من لؤلؤ وذهب وأعطاها جميعاً خادمه ، وأمره بالعودة ، بينما اتخذ سبيله إلى مناسك العابدين ، شمال جبال « الفنديا » .

وهنالك شق على نفسه ، وكلفها من العبادة ما يطيق ، وما لا يطيق ، وأسلمها لصيام مرير ، وزهادة بالغة .

بيد أنه لم يلبث أن اتهم نفسه بقتل نفسه .. ومن ثم ، فقد شرع يعتدل فى نسكه ، وفى إخباته .

وذات يوم .. رن فى روعه نفس الصوت .. الإشارة الإلهية .. أو الوحى .. أو الإلهام .. سموه ما شئتم .

المهم أنه نداء يحس أصحابه أنه قادم من فوق .. من وراء ما يحسون وما يبصرون .

وأصغى « بوذا » ثم أصغى ، وأصغى .

وأخيراً ، عاد يبث فى الناس حكمته ورؤاه .

فماذا كانت هذه الحكمة ؟

هى ذى .. ولا تزيد :

— « أيها الناس ، انبذوا الأنانية » .

إن « بوذا » يهتف بالإيثار وخدمة الآخرين ، وهو لا يعتبر نفسه مسئولا عن أن يعرف كثيراً عن سر الإله .. بل هو مسئول عن أن يعرف كل شيء عن بؤس الإنسان .. ! !

وهو يدعو الناس ، لينبذوا أطماعهم ، وأنانيتهم ، كى يجدوا « النرفانا» فى انتظارهم .

والنرفانا ، عند بوذا هى حالة السمو والصفاء التى يجدها ويبلغها الذين يغادرون أنفسهم سعيا وراء الحكمة والحق ، والذين يتفرقون على أنانيتهم ويبذلون من ذوات أنفسهم فى الخير العام .

إنكم تجعلون من ذواتكم سجونا ضيقة مظلمة قاتلة ، حين تعكفون على أنفسكم وحدها ، وتعيشون لأنفسكم وحدها .

وإنى إذ أدعوكم إلى « النرفانا » لأدعوكم فى نفس اللحظة ، إلى أن تحطموا عنكم أغلالكم ـ وتغادروا سجونكم التى تحتويكم داخل ظلماتها.

عاونوا الآخرين ، وابسطوا إليهم قلوبكم بالمودة ، وأيديكم الإيثار وبالرحمة .

بمثل هذا ، مضى بوذا يبشر ، ويدعو ، متوسلا بالمعرفة ، وبالأمل مبشراً المصغين إليه ببلوغ ذُرَى عالمهم المنشود .. عالم النرفانا .

* * *

وفى نفس الزمان .. كان هناك فى الصين رائد جليل يقول :

« حياتى هى صلاتى » ..

كم هى فاتنة وقيمة ، هذه العبارة .. وإنها لتدلنا من فورها على موضوع حياة قائلها ، ودعوته .

إنه « كنفشيوس » .. حصر جهده فى تجديد حياة الناس ، وضبط سلوكهم وفق ما يختاره لهم من عادات ، عرف ، وتقاليد .

ولقد هجر وظيفته ، إلى « دار الحكمة » التى أنشأها فى ولاية « لو » .

وظل ينضج فكره ، ويجمع نفسه ، ويحاول اكتشاف دوره ، حتى أفضى إلى ما يريد .

وهناك خرج إلى الناس بتعاليم ، كل غرضها ، خلق الرجل « الجنتلمان » .

الرجل الأنيق النظيف ، فى تصرفاته ، وفى حركاته .. فى طريقة أكله ، وفى طريقة سيره ، ونومه ، وفى طريقة حديثه .. وفى حياته كلها .

وحين يزخر الوطن بهذا الطراز من أبنائه ، يصير قادراً على صبغ نفسه بالصبغة الجيدة التى يريدها له « كنفشيوس » .

وحين تنجح التجربة داخل الصين ، تصدر إلى خارجها .. وهكذا يقرّ « كنفشيوس » عينا ويهدأ بالاً ، تجاه فوضى السلوك والنظم التى تؤرقه كثيراً ، والتى قال عنها ذات مرة :

« إن هذه الفوضى التى تعم الدنيا ، هى للشىء الذى يحتاج إلى جهودى » .

كذلك كان هناك أنبياء الشرق الأدنى . . يجوبون القفار والنجوع ، هاتفين بالصلاة ، وبالبر ، وبالتضحية . . منقَضِّين بغضبهم الصاعق على الاستغلال واحتكار الثروات .

« . . . من أجل أنكم تدوسون المسكين . . وتأخذون منه هدية قمح . . بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون منها .

« ويل للمستريحين فى صهيون . . . أنتم المضطجعون على أسرّة من العاج . . والمتمدِّدُون على الفرش ، والآكلون خرافاً من الغنم ، وعجولاً من وسط الصيرة . . الهادرون مع صوت الرّباب ، الشاربون من كؤوس الخمر . .

« كرهت أعيادكم ، حتى تدعو الحق يجرى كالمياه ، والبر يجرى كنهرٍ دائم . . ؟ »

ولا يكاد هذا الهدير يهدأ ويكفّ ، حتى يجلجل فى الأفق ، وبين الروابى ، وفوق السفوح ، نذير جديد يهتف به « اشعياء » :

« . . . ما لكم تسحقون شعبى ، وتطحنون وجوه البائسين . . ؟

« ويل للذين يصلون بيتاً ببيت . . . ويقرنون

حقلا بحقل ، حتى لم يبق موضع ، فصرتم تسكنون وحدكم فى شطر الأرض . . !

« ويل للذين يقضون أقضية الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ، ليصدّوا الضعفاء عن الحكم ، ويسلبوا حق بائسى شعبى . . . لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام . . !

« يقول الرب :

« اغتسلوا . . تنقوا . . كفوا عن فعل الشر . . . تعلموا فعل الخير ، اطلبوا الحق ، أنصفوا ، اقضوا لليتيم ، حاموا عن الأرملة » .

ثم يلقى نبوءة وأملا ، فيقول :

« ها هى ذى العذراء ، تحبل وتلد ، وتعطى ابناً ، يحل فيه روح الرب . . روح الحكمة والفهم . . روح المشورة والقوة . . روح المعرفة ومخافة الرب . .

« يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض .

« يسكن الذئب مع الخروف ، ويربض مع الماعز . يطبعون سيوفهم سككا ، ورماحهم مناجل . .

« لا ترفع أمّة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » . . !

أى إنسان كان إشعياء . . ؟

وما هذه المودة الدافئة العميقة التى يكنّها للعالم وللسلام . . ؟ !

هل نطمع نحن اليوم ، بل وبعد عشرات السنين ومئاتها ، فى أكثر من هذا . . ؟

أن تتحول السيوف إلى عملة . .

وتتحول الرماح إلى مناجل . .

وبعبارة واحدة ، تتحول ميزانيات الحروب وسلع الموت إلى تعمير ، وإنعاش ، ورخاء وسلام دائم مقيم .

هكذا ألقت الحياة سمعها لرواد من طراز لا نألفه نحن اليوم فى أجيالنا . . . ولعل هذا مما يباعد أحياناً ، ويفصل بيننا وبينهم بخطوط وهمية مخادعة .

لكن حين نستأنى ، ونخلص فى محاولتنا الفهم والمعرفة ، نجد الدور الجليل الذى قاموا به ينادينا ، وينادى فينا كل ما نملك من قدرة على الاحترام والتبجيل .

إننا إذ نصغى اليوم لرجال من أمثال هيجل ، واسبينوزا ، وابن رشد والفارابى ، وسانتا يانا ، وابن سينا ، وشكسبير ، والمعرِّى ، وكوبرنيكس وجاليليو ، ونيوتن . . فإنما نفعل ذلك إكباراً لما أسدوه لعقولنا ، ولوُجداناتنا من علم ومن نور . .

وهذا جميل . . ولكن ليس جميلا أن يَفْتننا روح العصر الذى يجنح عن الغيب إلى الشهادة ، وعن النبوءة إلى التجربة .

ليس جميلا أن يصرفنا روح العصر هذا ، عن أن نبذل احتراماً صادقاً ونصغى فى تدبُّر وتعلم لأولئك الرواد الأوائل الذين أخذوا على كواهلهم المستبسلة ، تطوير الحياة الإنسانية عن تطوير العقل الإنسانى وبث رؤى الخير والشجاعة والصلاح فى الضمير البشرى .

ولقد يكون بعضهم سلك شعابا يشق علينا اليوم أن نسير فيها ، لكنهم فى الإطار العام لدعواتهم ومناهجهم ، لم يكونوا إلا رواداً أفذاذاً ، ورسلا صادقين كباراً .

ومن جماع هتافاتهم الرشيدة المنبعثة من أوطانهم المتباعدة . . . خططت تخوم وطن واحد للفضيلة وللحق ، وأيضا للعالم الواحد الذى سينتهى حتما إلى الفضيلة وإلى الحق فوق صعيد ذلك الوطن الواحد الكبير الظاهر .

لقد كانوا — أثابهم الله عنا خيراً— ذوى فضل كبير فى جمع البشرية بذاتها ، وفى لقائها بواجباتها التى أفضت ممارستها إلى ما ظفرت به فيما بعد من تفوق عقلى ، ومن تفوق أخلاقى .

وإنا لنسأل :

أهؤلاء الذين لم يؤخذ على سلوكهم شبهة . . ولم تَحُمْ حول عقولهم ظنَّة . .

الذين عاشوا وتألموا ، وكابدوا الصعاب ، وواجهوا الخطر ، من أجل الناس ، لا من أجل دنيا يصيبونها ، ولا منفعة ينالونها . . !!

والذين خرجوا من ديارهم ، ومن أنفسهم ، ومن أموالهم . . وتبتّلُوا لدعواتهم ، وأخلصوا أصدق الإخلاص لواجباتهم . . !!

هل كانوا . . وهل كان كفاحهم العظيم . . وأيامهم العاملة . . ورؤاهم المضيئة .

كل ذلك . . أكان هذراً . . أكان لغواً ، وباطلا . .

أبداً . . أبداً . . أبداً .

وإنه لمفروض علينا من أنفسنا السوية ، أن نحترم كفاحهم النبيل الجليل ، ونصغى للحكمة الحلوة النافعة التى لا تزال تشع بها أمّهات تعاليمهم . . والتى انطلقت ذات يوم لأول مرة من هناك . . من أثينا ، والصين ، والهند ، وأرض الشام .. ومن قبل .. من هنا .. من مصر القديمة حيث صيغت على نسق عال وثيق ، فلسفات التوحيد ، والبعث ، والخلود ، وحيث رسمت للأخلاق ، وللسلوك مناهج قويمة ، بقدر ما هى مستقيمة .

***

والآن ، اقتربوا .

فى خشوع ، وتقوى .

إن الباب الكبير يُفتح . ليخرج منه إلينا .. إلى البشر جميعاً

أخَوان حميدان .. جاءا يلخصان دَعوة الخير كلها . ويعطيانها فى إطارها الدينى . تعبيرَها النهائى ..

انظروا .:

ها هما — فى ضياء باهر — قادمان .

عيسى .. ومحمد .

ابن الإنسان ..

ورحمة الله للعالمين ..!

أما « عيسى » فسيلَخص لنا كل فلسفات المحبة ، ودياناتها ، ورُؤاها .. ثم يمنحنا إياها فى تركيز حاسم .. فى دعوة ميسرة .. فى سلوك وديع .

وأما « محمد » فسينفُض عن الإنسان آخر أغلال التبعية ، والخضوع ، ويعلن فى شمول واع حقيقة التوحيد .

وهكذا ، تتلقى البشرية منهما ، آخر دروس إعدادها ، وتتسلم وثيقة رُشْدها ، لتمضى بعد هذا فى طريق الحياة شُجاعة مبصرة .

تجربة الوحى فى قلبها ، ونور العقل فى رأسها .

والله من قبل .. ومن بعد .. يعينها ويهديها .

الفصل الثالث

معاً
على طريق الرب

فى حجر أم بارّة ، بدأ المسيح ، كما بدأ محمد ، أولى ساعات الحياة .. وفى شباب متأمل ، وَرِع ، طالع كل منهما رؤى مستقبله ، واستجلى غوامض سُبحانه ..

* وكما تلقى « المسيح » بشراه الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وعينه عليه لا تريم :

« يجىء من هو أقوى منى » !

* كذلك ، تلقى « محمد » بشراه الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وهو مُصْغ :

« هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى » . !

* وفى قرى ظالمة لنفسها ، صاخبة شهواتها ، سار كل منهما عفًّا نقيًّا .

* وأمام مكايد اليهودية المتآمرة الغادرة ، وقف الرسولان يتحديان رِجسها ، ويكابدان بأسها . !

* وأريد للمسيح أن تنتهى حياته الطاهرة على صورة تُشبع الأحقاد الملعونة الملتاثة ، لخراف إسرائيل الضالة . !

* وأريد للرسول ، أن تنتهى حياته أيضاً بسبَبٍ من غدر اليهودية المتآمرة ؛ فدست امرأة يهودية السم فى طعامه . !

* وقال « المسيح » حين أحاط به لؤم الكهنة وكيد الكائدين :

« اغفر لهم يا أبتاه ، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون » .

* وقال « الرسول » ودمه يتفجر تحت قسوة الحجارة التى يُقذف بها من كل جانب :

« اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

أكانت هذه المشابهة عفو الصدفة ، أم هى ثمرة شىء يشبه القانون العام يُصْنع على شاكلته هذا الطراز الجليل من الهداة . . ؟ !

إننا نريد أن نقترب من محمد ، ومن المسيح أخيه ، ونريد أن نبصر الرؤى الصحيحة التى رأيا بها مستقبل الإنسان ، ومستقبل الحياة . فإنهما فى هذا لَنَظِيران مثلما هما نظيران فى شدة ولائهما للإنسان وللحياة .

والآن ، علينـــا أن نعرف ، ماذا كانت البيئة التى تنتظر كلا منهما ، وتتعجله المجىء . . عسى هذا أن يهدينا إلى حاجة عصرنا لهما ، ولروح الخير الذى تعبا فى بَثّه وإذاعته .

* * *

فلسطين ، أرض تحمل شعباً متعدد القَسَمات ، يعانى أهلها حقداً كثيراً على الغزاة الذين يسومونهم سوء العذاب . . وهم لهذا ، يهربون من الواقع الممض إلى رؤى غَدٍ مرقوب ، حيث « يجىء ملك اليهود ويخلصهم » ! !

إن جنود روما ، تشوى الأبشـــار بسياط كاوية ، والخوذات اللامعة المتـكبرة تقذف بالرعب فى أفئدة القطيع . . والضرائب الفادحة المبهظة

تجبى من ذوى الخصاصة والـكادحين ، لـكى ترفع إلى السيد المـاجد « قيصر » المتربع على عرشه الباذخ فى « روما » ! !

والجاثون بين يدى هذا الواقع الأليم ، أبناء شعب تشرّد فى الأرض وفى القرون ، وعانى من التمزّق والمحق ، ما جعله يتلمس فى شـوق بالغ قدوم من يخلصه .

كذلك عانى من تعدد الأسياد ، وتعدد الغزاة الذين أنقضوا ظهره ، ما جعله يهفو إلى عقيدة التوحيد ، ويهتف بها .

ترى ، إن جاءه مخلصه يؤمن به ، أم يعدّ له صليباً كبيراً . . ؟ !

وإن دعى إلى عبـادة الله الأحد ، يطيع ؟ ! أم يُشرك به الذهب ، والمـال . . ؟ !

لم تـكن تلك أحاسيس اليهود القابعين فى فلسطين وحدهم . . . بل والمبذورين فى بقاع كثيرة من الأرض .

هناك فى أسبانيا ، وفى أفريقيا ، وفى جوانب البحر الأبيض المتوسط وفى جنوب روسيا ، وبعض بلاد الإمبراطورية الرومانية .

غير أن المقيمين منهم فى « أورشليم » وما حولها كانوا أكثر معاناة للألم وأكثر تعلقاً بالأمل . وأيضاً أكثر اضطراباً وبلبلة وإباقاً .

كان « المجتمع » هناك — إن جاز هذا التعبير — نهباً لتقاليد خالطها الـكثير من العفن ، والنفاق ، والنفعية . . مما جعل الأنبياء يكثرون وتـكاد صيحاتهم المنذرة ، تزحم جو السماء .

كان اليهود الفرّيسيون يقفون حراسا عنيدين على طقوس شكلية خالية من الروح ، متجاهلين لُباب الشريعة ، وصميمها .

فالسبت — مثلا — مُقدّسة فيه الراحة ، بل البطالة ؛ حتى لقد ترك آباؤهم ذات يوم « أورشليم » تسقط فى يد أحـــد الغزاة السّلوقيين لأنه هاجمها يوم السبت ، وهم يوم السبت لا يعملون ، حتى حين يكون هذا العمل دفاعا واجبا عن حياتهم وأنفسهم . . ! !

وهم أيضًا — الفرّيسيون — يهتمون أعظم الاهتمام بغسل الأيدى قبل الطعام ، لامن أجل النظافة ، بل لمجرد أنه طقس دينى .. ثم لا يهتمون بمأتى هذا الطعام ، حلالا كان أو حراما ! !

وطهارة القلوب لا تنال من اهتمامهم معشار ما تناله طهارة الأيدى ، وعما قليل سنبصر خبث صدورهم وطواياهم وهم يحاربون المسيح ويفتنون فى الـكيد له .

واليهود هناك ، يمنحون أنفسهم من الامتياز ما يجعلهم فوق البشر ، ويرون أنفسهم « شعب الله المختار » ! ويزعمون أن الله قد وعد أباهم « إبراهيم » مُلـكاً عظيماً ، يحكمون من خلاله جميع الأرض ، وجميع من عليها ! !

ثم هم يعيشون فى دائرة مغلقة ، منطوية ، متزمتة .

وهم فى أورشليم يُشكلون « مصرفًا » جشعًا ، يؤله المال ، ويحتكر الثروة ، ويضرب الفقراء والمعوزين بسياط الاستغلال ، والربا ، والبغى .

لا يعرفون عن المقدسات إلا أنها السبيل لحظوظ أوفى من الكسب الحرام وإنهم ليبلغون فى غرورهم الصفيق الحد الذى يقولون عنده : « إن الله فقير، ونحن أغنياء » ! !

وهم جماعة تفكر بمخاوفها، وبحرصها، وبأنانيتها، فيجىء تفكيرها من الانحراف، والقسوة، بحيث يبدو أصحابه وكأنهم ليسوا على الإطلاق بشراً.

لقد قتلوا أنبياءهم، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذّبوا، وفريقاً يقتلون.

وإنهم لأساتذة فى فن الجريمة . . وفى أعناقهم وأيديهم بقع كبيرة من دم « زكريا » ومن دم « يحيى » ومن دماء زاكية لأنبياء وشهداء كثيرين !

وهم — وإن تظاهروا بالغيرة على الشريعة — لا يضعون شيئاً من حقائقها موضع التنفيذ .

والذى يعنيهم من الدين كله، شىء واحد : هو مُلكهم المنتظر حيث تجد نزواتهم الجامحة فى السيطرة وفى الاقتناء فرصة سعيدة .

وإذا كانوا مشغوفين بمجىء « المخلّص »، فليس لكى يخلصهم من خطاياهم، ويهدى إلى الله نفوسهم وسلوكهم .. وإنما ليضاعف الثروة فى جيوبهم ! !

من أجل هذا، رحّبوا بالمسيح بعض الوقت فور ظهوره، فلما تبين لهم

أنه لن يكون « السمسار » الذى يسلمهم الصفقة المنتظرة ، والملك المرقوب هبّوا لعداوته وتواصَوْا على حربه !

وأخيراً ، فإن معظم القيم السامية — إن لم يكن جميعها — قد اختفى من هذه البيئة وكان للكُهّان فضل كبير فى هذا . .

وفى وحل الجشع ، وإلى حضيض الجريمة أخلد الناس الذين كانوا يومئذ هناك . . .

ولو أن قوة تتمتع بما تشاء من ذكاء ومقدرة ، أرادت أن تتقدم لإصلاح هذه الجماعة الضالة ، والتى لم تكن رغم مساوئها الكثيرة ، إلا نموذجاً لكثيرين من سكان العالم أيامئذ ، فماذا كانت صانعة ؟

* تنشىء الجامعات ، وتملؤها بالأساتذة والمربين ، لتلقن فى مدرجاتها هذه الخراف الضالة أسلوب الحياة الفاضلة ؟

* تتوسل بأجهزة الإذاعة ، والصحافة ، والنشر ؟

لم يكن شىء من ذلك قد وجد بعد . .

* إذن تصبهم فى قوالب سحرية ؛ يدخل أحدهم من أعلاها شريراً فاسداً ، ويهبط من أدناها قديسًا طاهراً ؟ !

ولا هذا . .

لقد اصطنعت السماء يومئذ أنجع الوسائل وأجداها ، فكان المعلمون الصالحون الذين يبينون لهم الخير والشر ، ويميزُون الخبيث من الطيب ، ويقودونهم بكلماتهم الحارّة الصادقة ، وبسلوكهم الفاضل الباهر إلى المحبة

والفضيلة ، ويُشكلون المجتمع على صورة تمنحه قابلية التطور الصالح ، والتقدم السديد .

هذا كان عمل الأنبياء والمرسلين ، قبل أن تخالطه إضافات الأتباع ، وتحريف المغرضين .

وهذا ما سيحاوله المسيح حين يجىء .

* * *

ولكن ، قبل أن نشهد مجيئه ، يحسن أن نلقى نظرة أخرى على العالم كله ، فليس يكفى أن نعرف ماذا كانت « أورشليم » قبيل ظهوره ، دون أن نعرف ماذا كانت كذلك ، وفى نفس الزمان ، طبيعة المرحلة التاريخية للعالم كله .

فالمسيح ، ومثله الرسول ، لم يجيئا ليوقدا شموعهما فى أورشليم وفى مكة وحدها ، بل جاءا ليوقدا شموعهما للعالم كله .

ولقد كانا على وُجدان بهذه الحقيقية .

قال المسيح :

« جئت لأخلص العالم » .

وقال الرسول :

« إن الله أرسلنى للناس كافة . . وأرسلنى رحمة للعالمين » .

ولقد حدث هذا فعلا ، ولم تبق دعوتهما داخل القرى الصغيرة ، بل

تفتحت لها أبواب القارات الكبيرة ، ولا تزال الديانتان ، المسيحية والإسلام ، تغمران الأرض .

وهذا شيء طبيعي ، فللأفكار قوة على النفاذ والزحف أكثر مما للجيوش نفسها . . سيما تلك الأفكار الصادقة الكبيرة التي تحمل من أماني البشر ، وتحقق من احتياجاتهم ما هم إليه مشوقون .

فما الوضع الذي كان يسود العالم يومذاك ؟ ؟

كان الشرق الأقصى يمارس فلسفاته الخاصة ، وتتطور النظم في بلاده تطوراً عنيفاً تارة ، وهادئاً تارة أخرى .

ولكن ظاهرة تثير الانتباه حقاً ، كانت أيامئذ تعلن عن نفسها في ذلك الركن القصي من الأرض .

ففي الصين التي كانت تعيش وراء سورها البالغ طوله ألفاً وخمسمائة ميل . . والتي كانت قد وَحّدت ولاياتها الكثيرة المتفرقة تحت لواء حكومة مركزية واحدة .

الصين تلك ، كانت تمارس تجربة هائلة بدأها الإمبراطور «وو-دى» ثم أعاد تطبيقها بعد نكسة طارئة الإمبراطور « وانج مانج » .

وتنتظم هذه التجربة : إلغاء الرق وتأميم الأرض الزراعية تأميما كاملا شاملا ، وتأميم الملح ، والحديد والمناجم ، وتثبيت الأسعار !

أما في الشرق الأدنى ، وأوربا ، فقد كان هناك استعمار وبيل ، وَرِقٌّ بشع !

فالإمبراطورية الرومانية ، على الرغم من محنها ، وتمزقاتها الداخلية ، ابضة على أعناق رعاياها ، فى بلاد غالة ، حيث شمالى إيطاليا ، وجنوبى فرنسا ، وفى بريطانيا ، وفى النمسا ، والمجر ، ورومانيا ، ويوغسلافيا ، وبلغاريا ..

فى إسبانيا ، وشمال إفريقيا ..

فى مصر ، والشام ..

فى أقطار أخرى من الأرض ، سيطرت عليها . . !

وكان سلوك روما مع الخاضعين لها عجيباً ، فهى تُصدِّر إليهم عبادة قيصر ! وتأخذ منهم أرزاقهم ، وما تنتج بلادهم من ثروة وخير . . !

ولا بأس لدى روما بأن تسمح لبعض المقاطعات بإرسال ممثلين لها فى مجلس الشيوخ الرومانى ، كما حدث حين سمحت بهذا لبعض من أشراف فرنسا . .

تماما ، كما تفعل فرنسا اليوم مع الجزائر إذ تعتبرها مقاطعة فرنسية نظير التصدق عليها بإعطائها حق التمثيل فى جمعيتها الوطنية . . ! ! [1]

ولم يكن الاستعمار الرومانى ممثلا فى جيوش « روما » وحدها .. بل كان يؤازر القوة والسلاح ، فريق من الاحتكاريين العتاة ..

فقبل ميلاد المسيح بستةوأربعين عاماً ، لاغير ، كانللاحتكار الرومانى فى الأندلس وحدها ، ثلاثمائة مصرف .. تنزح من أسبانيا : ذهبها ،

---

(١) كتب هذا قبل أن تظفر الجزائر باستقلالها .

وقصديرها ، ونحاسها ، وفضتها ، وحديدها ..

كما كان الاحتكار الرومانى ، يعاونه الاستعمار الممثل فى الحكومة والجيش ، يسيطر عن طريق قادس على تجارة المحيط الأطلسى مع غربى أفريقية ، وفرنسا ، وبريطانيا ..

وفى مراحل مختلفة من سيطرة « روما » كان استعمارها يتسم بقسوة لافحة غليظة .

فمثلا ، كان الرومان يصطادون أهل « كورسكا » بالكلاب ، ليبيعوهم عبيداً ..!

وكانت الضرائب ، تفرض على الأرض ، وعلى الأملاك ، وعلى الحيوانات ، وعلى العبيد . . !

صحيح أن الاستعمار الرومانى ، كان ينشد العمران ، ويقيم المشاريع العظيمة فى كثير من مستعمراته تلك ..

ولكنه كان يفعل هذا ، ليزداد دخله منها .. أى أنه كان يُسمن البقرة ، لتدرّ له مزيدا من الحليب . . !

ففى شمالى أفريقيا — مثلا — أقام السدود العالية لاختزان الزائد من المياه .. وغرس أشجار الفاكهة والزيتون ، حتى قيل إن المسافر كان يقطع الطريق من طرابلس إلى طنجة تحت ظلال أشجار الزيتون ..

ولكن لمن كانت هذه الخيرات تجبى وتحمل . . ؟؟

لسادة روما وشعبها ..

أما أصحاب البلاد الحقيقيون ، فمجرد فَعَلة وعبيد . . !

ولقد أراد « أغسطس قيصر » ذات يوم أن يكافىء بعض ضباطه وجنوده على إخلاصهم له فأقطعهم « قرطاجنة » كلها .. وعاشوا هناك سادة وأشرافا .. بينما تحول أهلها إلى طبقة دنيا من الرقيق ..

***

كانت فلسطين ، إحدى مستعمرات هذه الامبراطورية ، يقطنها مليونان ونصف مليون من الناس ، يعيش الوثنيون منهم فى مدنها الساحلية .. ويتركز اليهود فى المدن الداخلية ... ويعانى شعبها ، سيما اليهود ، نزاعا عنصريا ، واضطرابا سياسيا .

فبين أهل يهوذا ، والسامريين ، وبين الصدوقيين ، والفريسيين ، عداوات دائمة الاستعار . . ولكن مقتهم لروما يجمع بين قلوبهم المشتتة .

وعلى صفحة هذه البلادالتى سيرفع المسيح فيها صوته بعد قليل ، تنعكس مساوىء الاستعار الرومانى وسلوكه ..

فالاستبداد السياسى ، رجيم ، حتى إنه فى معركة واحدة فى إبان شباب المسيح ، أى قبل جهره بدعوته ، قاد « قارس » حاكم سوريا الرومانى حملة تأديبة على بعض مدن فلسطين ، فهدم مئات البلدان ، وصلب ألفين من سكانها ، وباع ثلاثين ألفاً فى أسواق الرقيق .

ومن هنا توجهت آمال كثيرين ، فى مجىء مسيح مخلص ملك ، يؤسس مملكة مستقلة ، تدفع ضغط روما وتسلطها ..

والظلم الاقتصادى جاثم يومئذ ، وقبلئذ .. فالضرائب فادحة ، وجُباتُها لحساب الرومان لايرحمون ، وكهنة اليهود ، وتجارهم لايقلون عن الآخرين جشعا وبغيا ..

ومن هنا ، توجهت آمال قوم آخرين فى مسيح يلغى التجارة ، والملكية الفردية ، ويحقق مساواة كاملة بين الناس .. !!

كان أصحاب هذا الأمل ، جماعة تسمى « الأسينية » أو « الآزيون»

كان أعضاؤها يعملون فى مزرعة جماعية ، غربى البحر الميت .. ويجمعون محاصيلها ، وكل مكاسبهم فى بيت مال مشترك .. ومحظور على أى منهم أن يمتلك لنفسه بيتا ، أو فراشا ..

وكانوا يؤمنون بالسلام ، ويطردون من صفوفهم كل من يصنع ، أو يساهم فى صنع شىء من أدوات الحرب .. !

ولقد حدث لهم — كما يحكى الكاهن يوسفوس — فى تاريخه ، وكما ينقل عنه ديورانت فى قصة الحضارة — أن عُذِّبوا ، وحُرِّقوا ، وقطعت أجسامهم . ليتخلوا عن عقيدتهم وسلوكهم ، فأبوا ، وجادوا بأرواحهم مبتهجين .. !!

هذا رسم بيانى ؛ للموقف كله ، فى العالم الذى تسود معظمه الأنانية من جانب ، والمسكنة من جانب آخر .. وفى الأرض التى سيقدر لها أن تستقبل المسيح القادم .

ترى . ماذا سيصنع به يهودها . الذين طالما انتظروه .. ؟ !

***

فى هذه الدنيا التى لحناها ، شهد « بيت لحم » ذات صباح نضير مولد طفل

لم يكن أحد الذين شهدوا ميلاده ، بقادر على استجلاء المستقبل العظيم لهذا الوليد النائم فى مهد متناه فى البساطة ..

ومع هذا ، فلن يغيب طويلا شروق هذا المستقبل ، ولسوف يكبر الطفل ، ويشب وتهاجر به أمه خوفاً عليه ، ثم يعود فيستمع ليوحنا المعمدان ، ويلقف منه الشرارة التى ستطلق قواه العارمة من مكامنها ، ويمضى هادراً ، جيّاشاً . يحدث الناس فى دَعَة وحلم ما داموا يصغون إليه ودُعاء مسالمين .

ثم يجلجل فيهم كالنذير — يا أولاد الأفاعى — حين يلمح فى عيونهم الماكرة نوايا الغدر والكيد .

ولسوف تبدأ المسيحية — فى تقديرنا — من ساعة اللقاء العظيم بين « يوحنا » ، و « المسيح »[1] .

فمن المكان الذى شهد ذلك اللقاء خرجت القافلة أول ما خرجت إلى بلاد الناصريين . ثم إلى ما حولها ، ثم إلى روما الجاثية فى ابتهال ضارع ، ثم إلى أقطار شتى فى الدنيا ، والتاريخ ..

فإلى هناك لنبصر مشهد الشروق ..

* * *

---

(١) أو لعلها تبدأ بـ « اشعياء » وثورته المسالمة من أجل العدالة ، والفضيلة والسلام

نحن الآن ، على ضفاف الأردن .. وهذا الرجل المتبتل ، الأشعث الأغبر ، الذى يرتدى ثوباً من الشعر ، ويعيش على عسل النحل ، وعلى الجراد الجاف ، هو « يوحنا » أو « يحيى » عليه السلام ..

إنه عابد أواب ، ليس معه من الدنيا شىء .. وإنه ليدعو الناس إلى التوبة ، ويُعمّدهم بماء النهر كى يساعدهم على تطهير قلوبهم . وإنه أيضاً ليُندّد فى عنف شديد بالنفاق . وبالكهنة الذين « يغسلون أيديهم ، وقلوبهم ملآنة دما » . .

ملآنة بالشره وبالحقد وبالأنانية .. !!

وهو ، وإن يكن فى عزلته تلك ، بعيداً عن الواقع السىء الذى تموج به « أورشليم » إلا أنه بهذا الواقع جِدُّ خبير ..

ففى « أورشليم » هذه .. تلقى دروسه ، وعاش من عمره بعضه ، بين الكهان ، والفرّيسيين ، والتجار ، وجنود روما وعملائها ..

وهو شديد الخوف من الله ، ومن عقابه .. وإنه لا ينسى أن هذه الرقعة من الأرض ، التى يعيش فوقها ، قد ازدهرت عليها ذات يوم « سدوم » ثم خسف بها ، وبأهلها ، حتى لم يبق منها إلا عبرتها القاسية الرهيبة .

وهو يستعيد ذكريات القرون التى كانت لها على اليهود وطأة شديدة . فيبصر وراء كل ضربة محقتهم بها القدر ؛ تِلالا من الخطايا ارتكبوها فأخذت الرجفة صالحهم ، وطالحهم ..

أفيسكت عما يرى من جرائم وسيئات ، أم يصدع بما فى نفسه من حديث نافع مضىء ..

لـكن « أورشليم » على بعد عشرة أميال منه .

فهل يتركه طغاتها يتكلم حين يأتيهم نبأه ، أم يسوقونه إلى نفس المصير الذى طالما ساقوا إليه أنبياء وقديسين ..

إن طبيعة الإنسان ، هى الإنسان نفسه . وطبيعة « يوحنا » بكل ما تحمل من جيشان ، وسكون .. من إقدام وخشية .. من تطلُّع وعزلة .. من نُسُك وتبتل ؛ وغيرة على الإنسان ..

هــذه الطبيعة ، هى يوحنا . وإنه ليؤثر فى الآخرين بنقــل طبيعته إليهم .

هكذا نحن البشر .. تأثيرنا فى الآخرين ، يعنى أننا نفذنا إليهم ، بالجزء الأقوى من طبيعتنا ..

وقد يكون الذى يتلقى التأثير ، أقوى من المؤثر ذاته .. ومع هذا ، يظل للتأثير نفعه ، وضرورته .. لأن يكون بمثابة « إشارة البـدء والانطلاق » . ورفع الغطاء عن القوة الحبيسة المنتظرة ..

وشىء يشبه هذا ، سوف يحدث بين يوحنا ، والمسيح .

لم يطل تفـكير « يوحنا » فاختار طريقه ، وواجه مسئوليته . ووسط حشد من الناس وقف يذيع أولى كلماته :

— « توبوا .. لأنه قـد اقترب ملـكوت السموات » ... !!

وطار بين البلاد نبأه ، وكثر سعى الوافدة إليه .

وذات يوم ، والمسيح عاكف على شبابه الطاهر . يجلوه ، ويحسن

تنشئته ورعايته ، التقى بقافلة من قريته ، أصحابها عائدون من شاطىء الأردن ذاك . .

ويقترب منهم فى شوق ويسألهم :

— هل رأيتموه . . ؟

— نعم . .

— ماذا كان يقول للناس ؟

— سمعناه يقول :

« من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طـعـام فليفعل هكذا » . ! !

وتتفتّح روح المسيح ، ويتهلل وجهه . . ويحس كأنها كلماته . . كأنها مبادئه . . أو كأنه أولى الناس بتقبلها ، وحمايتها ، وتحويلها إلى سلوك ونهج .

« من له ثوبان ، فليعط من ليس له » . .

ما أكثر ما فيها من عذوبة ، ومن رحمة ، ومن عدل . .

وما أحرَاها بالتضحية فى سبيل حمل الناس عليها ، سيما أولئك الشريرين القابعين فى « أورشليم » المخفين وراء أرديتهم الفضفاضة ، نفوساً تفوق فى اللؤم ، اللؤمَ نفسه . وتـكاد الجريمة حين تراها تصيح : مرحباً بوطنى . . !

وعاد يسألهم :

— وكيف يستقبل الناس ؟

ويجيبونه :

إنه يفتح قلبه لهم جميعاً ، حتى العشارين لايردهم ، بل يعمدهم ويعظهم، وحتى الجنود ، لقد سألوه عما يصنعون ليرضوا الرب ، فأجابهم :

« لا تظلموا أحداً . .

« ولا تَشُوا بأحد » .

وازدادت روح المسيح إشراقًا وَوَجْداً ، وأوى إلى نفسه يفكر ، ويتأمل . .

إن الرؤى العظيمة الباسلة التي يحسها في أعماقه ، فقد انطلقت صادحة على ضفاف الأردن ، فلماذا لا يكون هناك في استقبالها ؟

ومع أول قافلة ، شدّ رحاله .

وهناك ، بين الصفوف المصغية إلى كلمات يوحنا ، أخذ مكانه في خشوع وتقوى . .

كان يوحنا يقول :

« أنا صوتٌ صارخٌ في البَرِّية . .

« قَوِّموا طريق الرب » .

وشق السكونَ سؤال وجه إليه :

— هل أنت المسيح الذى بُشِّر بمجيئه !

ويجلجل صوته بإجابة سريعة حاسمة :

« لست أنا المسيح . .

أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتي من هو أقوى مني ،

من لست أهلا لأن أحل سيور حذائه » .

ثم يفتح عينيه جيداً على الوجوه الباسرة ، وعلى اللحى الطويلة المتآمرة في أصداغ الكهنة الذين جاءوا ليأتمروا به ، وإذ يبصر فوقها تحركات أحقاد تتحفز وسخافات تتنادى ، يبددها بصيحة زاجرة :

— يا أولاد الأفاعي ! !

وينبهر المسيح بهذه القوة المتحدية .

وحين ينزل يوحنا إلى الماء ليعمد الطالبين ، يتقدم المسيح إليه راجيا تعميده ، ويلفه يوحنا بنظرة غريبة ، ثم يهمس في سمعه :

« أنا محتاج أن أتعمّد منك ، وأنت تأتي إليّ » . ؟ ؟

ويختلج رأس المسيح متسائلا ، وتلتمع أمامه مرة أخرى وسط هالة من الضوء الدّال الكاشف ، كلمات « يوحنا » التي صدح بها منذ قريب : « يأتي من هو أقوى مني » .

ولكن الحوادث تترى في مفاجآت عجيبة ، وفي بلبلة موجعة . .

لجنود « هيرودس » في خُوَذهم المستكبرة ، وفي « بطونهم » المنتفخة بالحرام ؛ يدهمون المكان الآمن الوديع ، ويعتقلون « يوحنا » ثم يذهبون به . .

ويعود المسيح إلى « الناصرة » بروح غير الذى غادرها به . . يعود وداخل إهابه إنسان آخر ، لا تشغله حرفته التى يكسب منها عيشه ، فـ « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، وإنما يشغله ذلك الدور الجديد الذى يحس أنه قد دعى لأدائه . .

ونفس الصوت الذى سيسمعه « محمد » بعد ستمائة عام يرن فى روعه رنين الصدق هاتفا :

« يا أيها المدثر ، قم فأنذر » . . .

نفس الصوت ، يرن الآن فى روع المسيح :

« أنت ابنى الحبيب الذى به سُرِرت . .

للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد » . .

ليس هناك ذرة من ريب فى صدق الحس الذى تلقى به محمد كلمات ربه .

ولا ذرة من ريب فى صدق الحس الذى تلقى به المسيح نداء ربه

فليس فى حياتيهما أثر — أى أثر — لتصنع أو ادّعاء .

حتى كلمة «ابنى» فى عبارة المسيح لم تزغ عن مكانها ، فنحن جميعا أبناء الله ، بمعنى أننا خلقه . . وأبوته لنا ، لا تعنى تلك الأبوة الوالدة التى تعرفها « دفاتر المواليد » ، بل هى أبوّة الخالق الأول ، والأعظم .

وعما قريب سنلتقى بالرسول وهو يستعمل نفس التعبير ، فيقول :

« الخلق عيال الله . .

وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله » .

بل سنسمعه يقول :

« يقول الله عز وجل : لا تسبوا الدهر ، فأنا الدهر » .

فهل الله حقاً هو الدهر ، بالمفهوم الحرفى لكلمة دهر . . ؟ !

لا . . وإنما هو سبحانه ، الدهر . . بمعنى أنه القوة الكبرى المسيطرة والمبثوثة مشيئتها فى الزمان والمكان . . والتى ينبثق من خلال رحمتها ، وقدرتها ، أسباب الحياة وطاقاتها .

وكذلك وصف الله بالأبوة ، فهو القلب الكبير الذى يسعنا جميعاً بحنانه وبره .

أجل ؛ جميعاً . . صالحنا ، وفاسدنا ، قوينا ، وضعيفنا .

وفيما وراء هذا ، نلتقى بالمسيح ، ينعت نفسه كثيراً بأنه « ابن الإنسان » .

بَيْدَ أن « ابن الإنسان » هذا ، لم يعرف فؤاده الذكى أية تخوم فاصلة بين الأب ، والرب . .

لقد تخطّى حدود النسب الأرضى ، وجاوزها جميعاً .

حتى أمه ، حين يقال له ذات يوم : إنها بالباب تريدك ، يجيب : من هى أمى ، ومن هم إخوتى . . ؟ ؟

« إخوتى وأمى هم من يعملون مشيئة الرب » ! !

هذا هو ابن الإنسان ، الذى نعت الله بأنه أبوه . .

والذى قال : « كل غرس لم يغرسه أبى السماوى يُقلع » .

إنه الآن أمام الله ، وجهاً لوجه — إن جاز هذا التعبير — وجميع الأحساب ، والأنساب ، والأسباب ، تزّاوَر وتختفى ، وتذهب بعيداً ، بعيداً . . بعيداً . .

لأن القبس الإلهى ، المعطَى لكل إنسان ، قد نما فى المسيح ، وتفوق وانتشر ، حتى ملأ وجوده كله ، ولم يعد يبصر فى ضيائه الباهر سواه . . حتى أمه التى ولدته ، وحتى إخوته .

ارتفعت روابطه بهم إلى مستويات عالية من الواجبات العامة الكبيرة التى تجعل من جميع البشر إخوة له ، ومن جميع الأمهات أمًّا . . ومن وراء هذا كله ، أبوه السماوى . . ربه الذى أرسله ، كما قال هو ليجبر منكسرى القلوب ، ويطلق الأسارى من القيود ! !

لقد أسهبنا قليلا فى هذه المسألة ، ولم يكن بد ، وقد جاءت مناسبتها من أن نسهب ونفيض . .

والآن نعود إلى حديثنا الأول . .

إلى يوحنا . .

لقد اعتقلته جنود روما ، جنود « هيرودوس » إلى حيث لا يستطيع بعد اليوم أن يلتقى بالناس ، ويهدم فى أنفسهم أوثان الطاعة لروما ، وقيصرها ، ولكهنة أورشليم .

أجل . . إلى السجن ، حيث لا يلتقى بعد بالقلوب الظامئة إلى كلمة الله ولا بالنفوس الساخطة على الظلم والكذب .

وخلت ساحة [illegible] من بطلها المقتحم .. فهل سيطول بها العهد حتى
حش .. ؟؟

كلا ، لقد قال يوحنا قبل أن يمضى : « يجىء من هو أقْوَى منى » .

فمن كان يجد فى نفسه اليقين بأنه هو ، فليتقدم ..

وكان هناك واحد يملأ اليقين رُوعه ووعيه ..

وكان هو المسيح ..

أَوَقد دقت الساعة ..

أجل ، يا ابن الإنسان فتقدم ..

وفوق مكان عال ، فى بيت لحم ، وقف يبلغ الحافّينَ حوله أولى كلمات الحق :

« قد كمل الزمان ..

« واقترب ملكوت الله ..

فتوبوا ..

« وآمنوا بالبشرى » ..

ولندعه يتم حديثه العذب القويم ، ريثما نمضى فى رحلة سريعة إلى مكة لنشهد مجىء أخ له كريم ، ونلتقى بأولى سمات الزمالة بين محمد والمسيح ..

* * *

علَامَ يدلُّ هذا الرجل الصالح ، الزاهد ، الأوّاب ، الهائم بين

الصحارى والجبال ، الضارع إلى الله فى نجوى دائبة .

أنفى لك اللهـم عانٍ رَاغِم
مهما تُجَشِّمْـنى فأنى جاشِم

إنه « زيد بن عمرو بن نفيل » يغمره الإحساس بنبوة آتية ، ويود لو يكون صاحبها ، يختاره الله لها . فيحظى بكل ما فى هذا الاختيار من شرف ، ويؤدى كل ما يقتضيه من حق .

وإنه ليجوب الأرض وحيداً ، ملِحّاً فى دعائه ، ممعناً فى رجائه ، مبتهلا إلى ربه سبحانه ، أن يعطيه إحدى الحُسْنَيَـيْنِ :

يكون هو النبي المختار ..

أو يجمعه الله به إذا كان الاختيار من حظ سواه ..

كان « زيد » هذا ، كما نعته المؤرخون ، راجح العقل ، قوى الخلق ، ذكى الفؤاد ، ثاقب البصيرة .

وهو فى إحساسه العميق بمقدم نبى ، لم يكن منجماً ، ولا عرّافاً ، بل كان رجلا مفتوح العينين على واقع البيئة ، وروح العصر ، فأدرك وجود حاجة تاريخية ملحّة ، تنادى مصلحاً .. منقذاً .. رسولا ..

وبلغ إحساسه بحتمية هذا المجيء ، حداً عـيّن له ميقات ظهوره .. اليوم .. أو غداً .. ولن يتأخر إلى بعد غد على الإطلاق . ! ! !

إن هذا الحسّ الصادق لابن نفيل ، يشكل ويمثل ضرورة تاريخية كانت تبشر فعلا بمجيء محمد ..

وهكذا ، وبعد ميلاد المسيح بقرابة « خمسمائة وسبعين عاما » جاء

فى رحلة عظيمة إلى الحياة ، واحد من أعظم أبنائها شأنًا ، وأكثرهم برًا ، وأهدام سبيلا ..

وكما لمحنا البيئة الخاصة والعامة ، التى كانت حين جاء المسيح .. نريد أيضا أن نلمح البيئة الخاصة والعامة ، التى كانت ، حين جاء محمد ، عليهما صلوات الله ، وبركاته ، وسلامه .

* كان العرب مبثوثين فى جزيرة مترامية . يزخر شمالها ، مثلما يزخر جنوبها بالفضاء الواسع ، وبالصحراء العارية . وتقوم القبائل بالبحث الدائب عن لقمتها ، وعلى حراسة عاداتها ، وعباداتها .. وتسير بهم الحياة بطيئة ، كخُطى الأغنام فى مشيها اليائس وراء عشب تأكله وترعاه .. !

* ولكن هناك قرى كبيرة تتجمع فيها مراكز الحياة القَبَلية .. مثل مكة ، والمدينة ، والطائف ، فى شمال الجزيرة .

وفى وسط مكة ، التى سينعتها القرآن حين ينزل ، بأم القرى يقوم بناء متواضع ، لكنه هائل التأثير ، مقدس المكانة .

إنها الكعبة ..

* وفى الكعبة مزدحم من الأصنام الطارئة ، فما كانت كذلك فى أيامها الأولى ..

أما اليوم ، فلكل قبيلة ، أو مجموعة من القبائل صنمها المعبود .

يغدو الناس ، ويروحون . ثم ينتهى تطوافهم دوما إلى هذه الأصنام

يبثونها حاجاتهم ، ومخاوفهم ، وآمالهم ..

* في جنوب الجزيرة ، أو شبه الجزيرة ، يحكم الفرس الذين ناصروا ملوك حِمْيَر على الأحباش ، ويتخذون من اليمن قاعدة لحكم سافر تارة ومقَنَّع أخرى .. ولسوف يظل هناك حتى يبطش أتباع الرسول المقبل ، بامبراطورية الفرس كلها .

* وفي الشمال ، حيث الحجاز ، يسيطر أشراف القبائل ، ورؤساء العائلات والعشائر ، يصلهم الساحل الغربي بمرافىء البحر الأحمر وتجارته . وينداح الطريق أمام قوافلهم وتجارتهم حتى بلاد الشام ..

* وهذا الشعب الصبور ، شديد التعلّق بحريته ، فذ الولاء لها ، لا يرضخ لأي حكم خارجي . ويؤثر شظف الصحراء ، ولأواءها ، لأن صعيدها المترامي ، وآفاقها البعيدة ، وحياتها المنطلقة .. كل هذا ، يغذي في نفسه الطامحة ، حنينها الأبدي إلى مزيد من الحرية والانطلاق .

ولكنه ، على الرغم من هـذا — وإنه لعجيب — يخضع للأصنام خضوعا مذلا . فأمام الحجر الصامت العاجز ، ينيخ كبرياءه واعتداده ، ويسلم أمره ومصيره .. ويبتهل ، ويناجي ، ويرجو ، ويخاف .. !!!

* ثم إنه على الرغم من بداوته ، يمارس حياة أدبية رفيعة .

فالشعراء يملأون فجاجه .. وللشعر ، كما للنثر أعياد ومواسم تشـد إليها الرحال . وليس هذا فحسب .. فالإنتاج الأدبي المتفوق يُجَاز ويكافأ ، بأن يرفع إلى أقدس مكان ، فيعلق بأستار الكعبة ،

حتى ولو كان هذا الانتاج يصور مغامرة حب ، أو ليلة حمراء .. !

وعن طريق القصة المنظومة ، كان يؤرخ لنفسه ، ويعبر عن تجاربه تعبيراً فنياً عجيباً . !

* وفى طرقات مكة ، كنت تسمع صهيل السادة وثُغاء العبيد « ! » وتلتقى بالطائفين حول البيت العتيق ، وبالمخمورين الذين أضناهم طول السهر فى غرف العاهرات .. وقلما تبصر شعائر إيمان صحيح عاقل .. فإذا غادرنا مكة إلى العالم ، وجدنا شيئا قريبا مما كان ، قبيل ظهور المسيح . . .

* فى الشرق الإقصى ، تفيق اليابان على صوت المدنية القادمة إليها من الصين ، وكوريا ، والبوذية . .

* وفى الهنـــد ، تمزقات داخلية ، وحروب أو فتن أهلية متساوقة . .

* والصين ، مشغولة باسترداد الأقاليم المجاورة التى خرجت عليها بعد سقوط أسرة هان ، ثم لا تلبث أن تستقبل عصراً من السلام ، والرخاء جدّ عجيب . !

ومراكبها المترعة بخيراتها ، تمتطى ثَبَج البحر ، قاصدة الثغور البعيدة على شواطىء المحيط الهندى ، والخليج الفارسى . .

والثقافة ، والأدب ، والفن فى أزهى عصورها . .

ولعلنا — الآن — ندرك سرّ وصية الرسول التى سيقولها فيما بعد « اطلبوا العلم ، ولو فى الصين » . !

هذا هناك ..

أما هنا ، فكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية ، والامبراطورية الفارسية . تخوضان من أجل المستعمرات فى الشرق الأدنى ، وفى أوربا ، حروبا مُفنية . !

فجستنيان يخرق الهدنة ، ويهاجم شمالى أفريقية ، وإيطاليا .. ويرد أنو شروان التحية بمثلها ، فيجتاح بلاد الشام ؛ وتسقط فى حجره كل ثروات ، وخيرات « أنطاكية » . !

ثم يعقدان الصلح .. ثم يعودان للحرب .. ولسوف يظل بأسهما بينهما شديداً ، حتى يزحف عليهما بعد وقت قريب ، أتباع رسول كريم فيذيعون نعى الإمبراطوريتين الآفلتين ..

أما اليوم ، فإنهما فى حروبهما المخبولة من أجل السيطرة والسلب . تبسطان سلطانهما على الشام ، والعراق ، وسوريا ، ومصر .. وتسومان الناس خسفا وضنكا .

وحين نعود إلى حيث كنا ، إلى الصحراء العارية .. إلى الكهوف والبادية .. إلى دنيا الأصنام ، والأزلام ، والميسر .. سنسمع صوتاً جديداً ، يلقى حديثاً عجباً .. سنبصر إنساناً جديداً يذرع الوجود فى رفق وأناة ..

إنه هو الذى كان « زيد بن عمرو بن نفيل » يلح فى البحث عنه .. والذى كان الزمان والمكان يتطلبانه ، وينتظران قدومه .

إنه ، محمـــد ..

« أجود الناس كفا .. وأجرأهم صـــدراً .. وأصدقهم لهجة .. وأوفاهم ذمة . . وألينهم عريكة . . وأكرمهم عِشْرة » . إنه قائم بين نفر من الذين يصغون إليه هناك . . فى ذلك المكان البعيد عن أعين الرقباء ، يحدثهم عن الله .

« الذى أطعمهم من جوع، وآمَنَهم من خوف» ..؟؟

الجوع ، والخوف . . ؟ ؟

يا لها من بداية جريئة ، وسعيدَة ! !

ويتحلق حوله حرّاس القديم ، وعُبّاد الأصنام ، فيهمس إليهم :

« يا أيها الـكافرون

« لا أعبد ما تعبدون

« ولا أنتم عابدون ما أعبد

« ولا أنا عابد ما عبدتم

« ولا أنتم عابدون ما أعبد

« لـكم دينكم .. ولى دين» .. ؟ ؟ ! !

وهذا أيضًا ، كم هو رائع ..

إنه « تعايش سلمى » يدعو إليه محمد ، أولئك الذين برزوا مبكرين لعداوته وحربه .

ولـكن ، لقد تركنا فى قفزتنا السريعة هذه ، مشهد الشروق .

فإلى وراء قليلا ، لنرى الأمل، وهو يولد .. والرُشد، وهو ينمو .. والرسول ، وهو يتسلم وثيقة الاصطفاء ، وأمر التبليغ ..

* * *

نحن الآن فى شِعْب من شعَاب مكة .. ومكة المتـــوقدة عاكفة على حياتها ..

ويولد طفل يتيم ، تتلقاه ذراعا أم حانية ، لا تلبث هى الأخرى أن تغادر دنياها ، تاركة وليدها فى السادسة من عمره غضًا ، وحيداً ..

ويشب الطفل ، شبابا سريعا نقيا .. وتقع عيناه على أصنام قومه .

وعلى الناس الحافّين بها ، الجاثين أمامها ، فيأخذه تفكير ذاهل شديد .

أتـكون هذه الحجارة المركومة آلهة حقا .. ؟!

ويستأنى طويلا ، قبل أن يقبل عليها ، أو يعرض عنها ، ويأوى إلى نفسه مفـكراً ، ثم ينتبذ منها مكانا قصيا ، بعيداً عن اللجاجة ، والمؤثرات هناك فى غار حراء ، حيث يستجمع قُوى إلهامه ، ويصقل كل استعداداته الروحية ، والعقلية ، ويهيب بكل القُوى أن تخف لنجدته ، وهدايته ، إن كان ثمة لهذا سبيل .

ثم يعود إلى البيئة .. إلى الأصنام ، والضوضاء ، والتقاليد ، والأساطير ، وكل ما يشكل حياة الناس ، ويطويهم فى موجات زحامه

ويستعرض ذلك جميعه ببصيرة مجلوّة ، قد أرهفها طول التعبد .

وصفاء الوحدة . وإلهام العزلة المفكرة .. وتقترب حقائق الأشياء من بصيرته ، فيراها أكثر مما يراها سواه .

ويعود إلى « الغار » فى ميقاته المعلوم ، وينثر بين يدى وعيه ، تجاربه الجديدة . وكلما بزغت له خاطرة ، لم يتوارَ منها ، ولم يهرب من مسئولية تمحيصها ، والتفكر فيها .

فثقته بنفسه جد عظيمة .. وحياته ، وسلوكه ، وعلاقاته الصادقة بالحياة ، تشد زناد الثقة فيه إلى أقصاه ..

ليس فى قريش من لا يدعوه « الأمين » ..

وليس فيها من لا يشهد له برجاحة العقل ، وعظمة النهج ، واستقامة الضمير ..

وهو ينال هذه الثقة بطبيعة مبينة مفتوحة . لا التواء فيها ، ولا مخاتلة .

إنه « نسيج وحده » فى غير تصنع ..

* الناس يعكفون على أصنام لهم .

أما هو ، فشىء فى روعه ، يقول له : قف .

* الناس ، يلعبون الميسر ، ويستقسمون بالأزلام ، ويظلمون الأرملة ، ويأكلون مال اليتيم ..

أما هو ، فشىء فى روعه ، يقول له : ارجع .

* الناس يعيشون بالوراثة والمحاكاة ، شعارهم « إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

أما هو ، فشيء في روعه ، يقول له : فكّر .

إذن ، فهو إنسان يحيا داخل هالة عظيمة مضيئة من انبعاثات ممتازة متفوقة .

ولقد عانى واجبات وجوده على أمثل طريقة ، ومارسها منذ البدء ، في مستوى عال ، لا يطيقه سوى أولي العزم من الرجال .

ومع الأيام ، تنضج شخصيته ، وتتفتح رؤاه .

وينمو وعيه الداخلي نمواً تضيق به ذاته ، وتحتشد قوى نفسه ، وإلهامه ، وتفكيره وعزيمته ، احتشاداً ، يتعاظم كل تلبّث ، وكل أناة ، وكل انتظار .

ويهلُّ عليه ، ما كان يرجو وينتظر .. أذان من الله بالبدء . ويقين بأنه صاحب الدور ، ورائد المرحلة ..

وذات يوم ..

ولنصغ إليه ، يصف ما حدث :

« .. جاءني الملَك فقال : اقرأ .. قلت : ما أنا بقارىء . فأخذني ؛ فغطّني حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني ، فقال : اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارىء ! فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني ،

فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان
من عَلق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم .
علم الإنسان مالم يعلم » .

وهكذا ، يلتقى « الرسول » بدوره . ويحمل الأمانة الكبرى . ويمضى فى حذر أول الأمر .. ثم يجهر بها ويصدع حين يقول له ربه الذى اختاره واصطفاه « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين » .

ولسوف يواجه من الأذى ، ومن الكيد ، ومن العناد ما يزيده إصراراً وعزماً .

ولسوف ينتصر فى معركة الإغراء ، انتصاراً نبيلاً ، تاركا كلماته الهادية العظيمة ، درسا لا يرتجف ضياؤه .

« والله يا عمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر
فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله
أو أهلك دونه » ..

سيدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ..

فإذا أحاطت به العداوات الباغية فى مكة ، هاجر بدعوته إلى المدينة .

وإذا اضطره أعداء الحياة الجديدة ، الطاهرة ، العادلة التى يبشر بها إلى القتال ، قاتلهم غير معتد ، ولا مسرف ..

فإذا أظفره الله بهم أخيراً ، سارع إليهم بالنجدة وبالأمن :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » ..

وعلى طريق حياته الباهرة ، سترتسم ، إلى الأبد آثار قدمى رجل .. وإنسان .. ورسول ..

وبعد .. فماذا كان محمد والمسيح يريدان .. ؟

ما الغرض العظيم الذى سارا على طريق الرب ، ليبلغاه وليحققاه ..

لقد بَشّرا كثيراً بمثوبة الله .. وخَوّفا كثيراً من عقابه .. وأذّنا فى الناس بشعائر ، ومناسك ، وعبادات ..

فهل كان هذا وحسب ، غاية سعيهما .. أم كان أسلوباً ووسيلة لحمل الناس على إدراك شأو بعيد ، وأمر جليل .

لقد قال المسيح : « جئت لأخلص العالم » ..

وقال محمد : « إنما أنا رحمة مهداة » ..

فماذا كان يعنيان .. ؟

من أى شقاء ، سيخلصنا المسيح .. ؟

ومن أى عناء ، سيرحمنا محمد .. ؟

وفى التحليل النهائى لنهجهما ولمواقفهما الزاخرة المثابرة .. ماذا سنجد ، هناك من لُباب خالص محض .. ؟؟

وبعبارة واحدة :

ماذا كانت وجهتهما ..

أما أنا فأقول :

كانت ، إنهاض الإنسان .. وإزهار الحياة ..

الفصل الرابع

معاً
من أجل الإنسان

الإنسان ..

هذا الاسم ، ذو الرنين الصادق ، الفاتن ، المُثير ..

هذا الكائن ، الذى اؤْتُمِنَ على كل أمانات الحياة وواجباتها ..

هذا المسافر ، الذى لا يضع عصاه عن كاهله لحظة ، والذى يُوَلّى وجهه دَوْماً شطر كمال بعيد .. !

هذا الإنسان ، فى علمه وجهله .. فى ثرائه وفقره .. فى حريته وأغلاله .. فى تقواه وفجوره .. فى صحته وسُقْمه .. فى ألمه وأمله .. فى عظمته وبُؤسه ..

كيف تراءى لمحمد ، وللمسيح ؟

ما نوع الواجبات التى حملاها تجاهه ؟

ما الأغلال التى حطّماها عنه ؟

ما الانتصارات التى حققاها له ؟

من هذا المَدْخل سنمضى ، سائرين وراء ضياء باهر ، يقودنا نحو ما يُهمنا اليوم معرفته من رسالة عيسى ، ورسالة محمد ..

ولسوف يكون من حسن حظ الإنسان — فى محنته القائمة — أن يبصر عناية الله به إلى كل هذا المَدَى الذى لم يكن يَحدسه ، ويَخاله ، كما سيكون من سوء حظ أعداء الإنسان ، أن يظهر

للناس حقيقة موقف الرسولين الكريمين ، من الإنسان ، ومن حقوقه فى هذه الحياة .

قرأتم أن المسيح رفض مُلْك اليهود ، كما رفض الإذعان لإرهاب رؤسائهم ، وطلب إليهم أن يخلوا بينه وبين كلمة الله ، يريد أن يقولها .

وقرأتم أن محمداً رفض أن يعطى الشّمس فى يمينه ، والقمرَ فى يساره ، على أن يترك الأمر الذى من أجله جاء ..

فما الكلمة التى قالها المسيح ، وحرص أعظم الحرص على أن يقولها ؟ ..

وما الأمر الذى آثر محمد تبليغه ، على مُلْك يحده الشمس ، والقمر ؟

إنهما لم يجيئا بدعوة مجردة ، بل بدعوة ذات موضوع حافل عظيم .

فماذا كان ذلك الموضوع .. ؟

لقد كان الإنسان ، وكان الحياة ..

وأول ما يبهرنا فى عنايتهما بالإنسان ، ذلك الترديد المُثمِن لاسمه ، والحفاوة الصادقة به .

فالمسيح ينعت نفسه بأنه « ابن الإنسان » ويكررها كثيراً .

« إن — ابن الإنسان — لم يأت ليهلك أنفس الناس ، بل ليخلص » ..

« ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، و — ابن الإنسان — يسلم إلى رؤساء الـكهنة » ..

« لا يذوقون الموت حتى يروا — ابن الإنسان — آتيا » ..

« ومن قال كلمة على — ابن الإنسان — يُغفر له » ..

« لا تعرفون اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها — ابن الإنسان — » ..

« إن — ابن الإنسان — ماض ، كما هو مكتوب عنه » ..

« كذلك يكون — ابن الإنسان — أيضاً لهذا الجيل » ..

* * *

ويتحدث القرآن الـكريم المنزّل على محمد عليه الصلاة والسلام . يتحدث عن الإنسان ، فيعطيه صفته الحقة ، كَمِحْوَر لنشاط النبي ، وموضوع لرسالته :

« لقد خلقنا — الإنسان — فى أحسن تقويم » ..

« أوَلاَ يذكر — الإنسان — أنَّا خلقناه من قبل ولم يَكُ شيئاً » ..

« إن — الإنسان — خُلِقَ هلوعاً » ..

« إن — الإنسان — لَيطغى ، أن رآه استغنى» ..

« وإذا أنعمنا على — الإنسان — أعرض ونأى بجانبه » ..

« فإذا مَسَّ — الإنسان — ضُرٌّ دعانا » ..

« وكان — الإنسان — أكثر شيء جَدَلا » ..

« وَيَدْعُ — الإنسان — بالشر دعاءه بالخير » ..

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض ، والجبال ، فأبَيْن أن يَحْمِلْنَهَا ، وأشفَقن منها ، وحملها — الإنسان — » ..

* * *

ألستم تجدون لتكرار كلمة « إنسان » سبباً وثيقاً من الحنان والبر ، ومن العناية ، والاهتمام ، يصله بالله ، وبمحمد رسوله ؟

إن الإنسان ، هو موضوع الرسالة إذن ، رسالة محمد ، ورسالة المسيح .. ونحسب هذا من البداهة بحيث لا يحتاج إلى تقرير ..

وإلا ، ففيم كان مجيء الرائدين الشاهقين والرسولين الكبيرين ؟

* ولأنهما بُعثا من أجل الإنسان .. كانا إنسانَين .. كانا رجلين

من البشر .. اثنين من عباد الله ومن أولاد آدم .. يأكلان الطعام ، ويمشيان فى الأسواق .

ولم يجيئا مَلَكين .. لم يجيئا من عالم غير عالمنا ، ولا من طبيعة غير طبيعتنا ، بل لم يُخلَقوا فى خَلْقٍ يغاير خلقنا .

« ولو شئنا لنزلنا عليهم من السماء مَلَكا رسولا » .

هكذا يقول الله سبحانه ، وهو لم يُنَزِّل ملكا ، لأن الإنسان الصامد أمام تجربة الحياة .. الإنسان الذى حمل أمانة الوجود بعد أن أشفق من حملها ، وتنحّى عنها خلائق كثيرة كانت تسير معه فى سباق التطور العظيم .

الإنسان هذا ، خليق بأن يتلقى من نفسه ، الدرس والمثل .. وإذن ، فلتأته رُسُله منه ..

« لقد جاءكم رسول من أنفُسِكم ، عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم » ..

* ومن هنا ، يبدأ توقير محمد والمسيح للإنسان .

يبدأ من إمعانهما الكبير فى توكيد بشريتهما ، وإعلان إنسانيتهما ، ووضع وجودهما داخل هذا الإطار دوماً ..

ولقد كانا ، وهما يرفضان الشطط فى إطرائهما .. والغلو فى توقيرهما إنما يقرران القيمة الحقة للإنسان ..

كأنهما يقولان لمن يحاول سلخهما من بشريتهما :

أى مقام هناك أسمى ، وأعظم ، تريد أن تذهب بنا إليه .. ؟!!

وماذا فوق الإنسان من خَلْق .. ؟

الملائكة مثلا .. ؟

إنهم فى خدمة الإنسان الصالح الكادح ..

وحين أراد الله أن يصطفى لنفسه خلفاء فى الأرض ، تعالت ترنيمات الملائكة ، ضارعة ، مبتهلة أن يكونوا أصحاب الحظ فى هذا الاصطفاء ..

لكن الله رمق « الإنسان » بعين حانية ، وأشار نحوه فى حب غامر وقال : هذا هو الخليفة .. !

إذن ، فالإنسانية ، هى الجنسية المشرفة التى يحملها المسيح ، ويحملها أخوه ، وهما بها جدُّ فخورين .

عيسى يقول : أنا ابن الإنسان .

ومحمد يقول : أنا بشر مثلكم .

ويؤكدان هذا المعنى أكثر ، وأكثر ، حين ينهى المسيح من أطرى صلاحه فيقول له :

« من قال إنى صالح ؟ ! ليس من أحد صالح سوى واحد ، هو الله » ..

ويطلب إلى تلامذته ألا ينعتوه بالمسيح .. !

وينهى الرسول أصحابه حين يقولون له أنت سيّدنا ، ويقول لهم :

« لستُ سيّداً لأحد ، إنما أنا عبد الله ورسوله » .

كان حرصهما على أن يظلا فى وعى الناس مجرّد بشر ، اعتداداً

بدور الإنسان ، واعتزازاً بالبشرية نفسها ، ورغبة أمينة فى الحياة داخل إطارها ، وطبيعتها . .

حتى معجزاتهما . .

لم تكن تعنى — كما يحلو لنا أن نفهم — أنهما غادرا صفوف البشر . .

فكل عمل عادى .. يتم بأسلوب غير عادى ، يشكل معجزة . .

وإن ذلك ليبدو واضحاً فى أعظم معجزات محمد وصاحبه . .

فأعظم معجزات محمد ، هى محمد نفسه . .

وأعظم معجزات المسيح ، هى المسيح ذاته . .

فماذا هناك . . ؟؟

إنهما ، بشرٌ مثلنا ، يعيشون على ذات الأرض ، ويشربون من نفس الماء ، ويأكلون من نفس الطعام . .

ولكن الأسلوب الذى اتبعاه فى نسج حياتيهما العظيمتين ، لم يكن أسلوباً عادياً . .

بل كان متفوقاً ، وخارقاً .. فكانت المعجزة .

والقرآن — مثلا — كلام مَلفوظ .. ومسطور ، والكلام شىء عادى ، لأن البشر جميعاً يتكلمون .

ولكن ، لأن هذا الكلام القرآنى جاء بأسلوب غير عادى ، فقد صار معجزة ، ومعنى أنه جاء بأسلوب غير عادى .. أن الإنسان الذى جاء به أمىّ ، لا يقرأ ولا يكتب .. وأنه بذل

فى إعداد نفسه ورُوحه كى يستطيع تلقّيه عن ربه ، جهوداً ، أكثر من مضنية ، وأكثر من خارقة .

والمسيح ، حين يشفى المرضى اليائسين ، وحين يرد إلى الحياة من اقتربوا من غيبوبة الموت ، إنما يمارس عملا عادياً من أعمال البشر ، وهو التطبيب ، والعلاج .

ولكن ، لأن شفاءه للمرضى يتم بأسلوب غير عادى ، وهو لمسة كف أو نظرة عين .. فهنا يكون العمل معجزاً .

أجل .. لقد كانت القوة الخارقة التى يرد بها المسيح العافية إلى المزمنين ، والتى يدرأ بها الموت عن الحياة المتعلقة بآخر خيوطها .. كانت قوة نابعة من ذاته .

ولكن ذاته ، لم تكن مثل ذواتنا .. بل كانت مؤهلة لعظائم الأمور ، معبّأة بطاقات فريدة ، وهائلة .

وفى حياة المسيح نبأ يصور هذا المعنى ، ويجسمه .. يرويه إنجيل « لوقا » ..

فذات يوم ، كان يعبر الطريق ، ومعه نفر من تلامذته ، واقتربت منه فى زحمة الحافّين حوله ، سيدة كانت تعانى نزيفاً مزمناً .. وفى إيمان عميق واثق لمست هدب ثوبه .

وتوقف المسيح عن المسير فجأة ، وقال :

— « من الذى لمسنى .. ؟ » .

ويجيب تلميذه ، بطرس :

— « يا معلم ، إنها الجموع تضيّق عليك ، وتزحمك » ..

ويعود السيد المسيح ، فيؤكد أن أحداً لمسه ، لأن قوة خرجت منه :

— « لقد أحسست بقوة تخرج منى » ..!!

قوة تخرج منه ..؟؟

أى تفسير عجيب للمعجزة ..؟!

لكأنه آت من عقل رياضى ، وليس من قلب مسيح ..!

إن الإنجيل يتم هذا النبأ ، فيخبرنا أن العلة زايلت المرأة المريضة فى نفس الوقت .

وهكذا ، يساعدنا المسيح على فهم المعجزة ، وإدراك ما حدث حين يقول : إن قوة خرجت منى ..

فالذى حدث ساعتئذ ، أن رغبة إنسانية ، مؤمنة ، مستسلمة ، تعلقت بطاقة بشرية غامرة ، طالبة منها العون على الشفاء والخلاص ..

جهاز استقبال سَوىّ ، التحم بجهاز إرسال قوىّ ، فتلقى عنه فى نفس اللحظة والوقت ..

أجل ، فلم تكن لمسةً عابرة مسترخية مستريبة ، تلك التى نَبَّهت المسيح إلى جزء من طاقته يغادرها وينفصل عنها .. بل كانت لمسة هاتفة ، داعية ، ضارعة ، مبتهلة ..

كانت إيماناً مفعماً ، يتحسَّس طريقه فى ثقة واستنهاض ، إلى ملاذ هو وحده ، وفى تلك اللحظة بالذات ، الأمل الأوحد ، والرجاء الأعزّ .

ولقد أراد المسيح أن يوكد لتلامذته الذين بهرهم شفاء المريضة ، أن ليس فى الأمر شىء غير طبيعى ، فأشار للمرأة قائلا :

— « إيمانك قد شفاك . .

« اذهبى بسلام » . . ! !

هذه المعجزات .. لم تكن — كما قلنا قبلا — خروجا بالرسولين الكريمين عن صفّ البشرية .

كما لم تكن تغريراً بالبسطاء ، وكسباً لإيمانهم .. فالذى لا يهديه إلى الإيمان نور الشخصية ، وجلال العمل ، لن يهديه شىء آخر . .

* ثم إن محمداً ، والمسيح ، لم يهتمَّا بشىء مثل اهتمامهما بأن يُحررا البسطاء من غفلتهم وسذاجتهم ، ويحرِّرا الذكاء الإنسانى مما يُوبقه من رواسب الرؤى المغلوطة ، والأساطير الموروثة .

لقد خسفت الشمس ، يوم مات « إبراهيم » ابن رسول الله .

وقال أصحابه : « إن الشمس خسفت لموت إبراهيم » ..

أفلم تكن هذه فرصة طيبة للرسول ، لو كان منتحل أمجاد . . ؟ ؟

بلى .. وليس عليه إلا أن يصمت ، ويدع العبارة التى قالها أصحابه تنتشر .. ولكنه لا يفعل .. ولا ينبغى له أن يفعل .. فينادى فى أصحابه قائلا :

— « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . .
لا ينخسفان لموت أحد .. ولا لحياته » . . !!

ومثل هذا الموقف العظيم .. موقف للمسيح .

حين جاءه « يايرس » رئيس المجمع يُوَلْول ، وينكفىء فوق قدميه يقبلهما أمام الكافة ، ويتوسل إليه ، كى يذهب إلى ابنته التى ماتت ليرد إليها الحياة .

ويدخل المسيح على البنت ، وأهلها حولها ينوحون ، ويضجون وَيُلْقِى على الجسد المسجَّى نظرة طاهرة قادرة ، فيتحرك الجسد تحت غطائه . .

وتتحول الضجّة الباكية الحزينة إلى دهشة ، وفرح ، وصياح . .

« إن المسيح أحياها » . . !!

ولكن الصادق العظيم ، يشير إليهم بكفه المضيئة ، حتى إذا صمتوا قال لهم :

« إنها لم تمت .. لقد كانت نائمة » . . !

تأمّلوا هذين الموقفين جيداً ، موقف محمد من خسوف الشمس . . وموقف المسيح من ابنة « يايرس » .

ثم اعلموا أنكم أمام أروع مثل لتكريم الإنسان ، ولاحترام عقله ، ولتحريره من غوغائيته وسذاجته . .

والرجل العادى . .

إن النظم ، وإن الحضارات ، لتمتحن بمدى ما تُقدم للرجل العادى من خدمات ، وما تهيىء له من فرصة .. وما تضفيه عليه من تكريم .

ذلك ، لأن (الرجل العادى) يمثل المجموع ، ويشكّل دوماً أكثرية المجتمع والأمة .

والنّظم القويمة ، والقوانين العادلة ، إنما تُسَنُّ فى الحقيقة لحماية (الرجل العادى) ، وإرباء حظوظه فى الحياة .

وفى المجتمعات التى تقوم على التمايز الباطل ، يقع (الناس العاديُّون) فريسة لطبقة معينة من الأشراف والسادة ، يلقون الرعب فى قلوب غرمائهم وضحاياهم ، ويستحوذون فى صفاقة وفُجْر على حقوقهم وأرزاقهم.

وفى مثل هذه الأوضاع ، تتمثل حماية (الرجل العادى) وتكريمه فى إعطائه الأولوية التى يستحقها بكدحه ، وبعمله .. وَمَنْحه التقدير الأدبى والمادى الذى يرشحه له طول بلائه .. ثم تكون بزجر تلك العصابات الضالة المتغطرسة النّهّازة التى تفتك بالعدل ، وبالحق . . وعزلها عن عرشها الزائف المغتصب .

ترى ، ماذا كان موقف يسوع ، ومحمد .. من الرجل العادى . . ؟
الإنسان الذى لا حول له من مال ، أو جاه ، أو منصب .
المستضعف ، الذى طالما يتخذ ظهره مرعى لسياط الطغاة . . ! !

الـكادح ، الذى طالما يصطنع عرقه نبيذاً ، يكرعه الجناة . . !

الحق أن موقفهما مع (الرجل العادى) يبهر الألباب .

وسنبصرهما الآن ، وهما يجذبان (الإنسان العادى) هذا ، ليأخذ مكانه فى الصف الأول .

ثم ، وهما يَنهالان على كبرياء الأشراف الـكاذبة ، فيمحقانها محقاً . . !

ولنبدأ بالمسيح .

* * *

هل تبصرون هذا القائم هناك .. وسط هالة من صفاء روحه . . وفى يمينه سفر « اشعيا » يقرأ منه . . ؟ ؟

إنه هو ، عيسى روح الله وكلمته ، فلنصغ إليه :

« روح الرب مسحنى ، لأبشر المساكين ..

« أرسلنى ، لأشفى منكسرى القلوب ..

« لأنادى للمأسورين بالانطلاق ..

« وللعمى ، بالبصر ..

« وأرسل المُنْسَحِقِينَ فى الحرية » . . !

وهذا أيضاً .. المطلُّ من بين الحشود الحافّة حوله .

إنه هو ، يتحدث :

« طوباكم أيها المساكين ، لأن لكم ملكوت الله » .

« طوباكم أيها الجياع الآن ، لأنكم تشبعون » .

« طوباكم أيها الباكون الآن ، لأنكم
ستضحكون » .. !

إن المسيح يحدد مكانه فى المجتمع حين يستشهد بكلمات اشعياء ، ويتحدث بها كنبراس له ، ومنهاج .

إنه مع المساكين ، كى يبشرهم .

مع منكسرى القلوب ، ليجبر قلوبهم.

مع المأسورين ، كى يحطم أغلالهم وَيُطلقهم .

إنه مع (الإنسان العادى) الذى ليس معه من مال الدنيا ، ولا من جاهها ، ولا من سلطانها ، ما يرد إليه حقوقه التى اغتصبها منه الذين هم فوق .

لقد سلح الناس العاديين بأقوى الأسلحة ، الإيمان والأمل ، حين قال لهم بلسان الرب القدير : طوباكم ..

وقفز بمكانتهم الاجتماعية إلى الصَّدارة ، حين جعلهم من الأهمية إلى حد أن يرسل الله من أجل حمايتهم ، وتصحيح أوضاعهم ، رسلا ..

« روح الرب مسحنى ، لأبشر المساكين » ..

« لأنادى للمأسورين بالانطلاق » ..

إن هذه العبارة وحدها : « أنادى للمأسورين بالانطلاق » لتمثل المفهوم الثورى لدعوة المسيح ، وتشير إلى الخطة الكاملة التى كانت ستتبدَّى خلال نضاله من أجل الجماهير المهضومة .. لو قدِّر لأيامه على الأرض أن تطول .

هذا الروح الكبير ، الذى كان يعبر الطريق ، باحثاً عن مفلوج ، ليشفيه .. أو مصروع ، ليداويه .

والذى يوصى كل مؤمن به ؛ فيقول :

« وإذا صنعت ضيافة ، فادع المساكين ، الجذع ، العرج ، العمى .. فيكون لك الطوبى » .. !

إنه يصحح بهذه الأساليب الملائمة للبيئة ، والعصر ، وضع (الرجل العادى) فى مجتمع ينتهك حقوقه ويزدريه .

لكن هذا ، لا يكفى .

وكل إيماء بالكرامة والأمل لذلك الكائن المقرور المرتعش ، خليق بأن يذهب بَدَداً تحت وطأة الإذلال الموصول ، الذى يصبُّه عليه صَبًّا ، السادة الأعْلَوْن .

إذن ، فلحساب (الرجل العادى) يقرر المسيح أن يخوض معركة كبيرة مع أولئك الأشراف

أولا : لِيزجر غرورهم ، ويفتحَ أعينهم على آثامهم ومظالمهم .

وثانياً : لِيُغْرى بهم أولئك المستضعفين الذين يترنَّحُون ، فَرَقاً منهم وخوفاً .

ولقد فعل . .

وبدأ بالطبقتين اللتين كانت لهما على الناس وطأة مميتة .. طبقة الكتبة ، وطبقة الفريسيين

وأمام حشد هائل من الناس ، واجههم ذات يوم .. ووقف « ابن الإنسان » يتفجّر ذكاء ، وعُنفوانًا ، وصِدْقًا .

وقف وحده ، أعزل .. لا مال ، ولا سلاح ، ولا عصبية ، ولا حزب .

وهذا ، هو الدرس . . ! فلو أنه قوى ، غنىّ ، مُدَجَّج بالأنصار المتحفّزين ، ما تركت كلماته المقبلة فى أنفس المستضعفين أثرها المرتجى ، ولا حركت فيهم إرادة التحدّى ، والمقاومة .

إن الدرس لنافع ، حين يُدَغدغ كبرياء العصابة المستعلية ، رجلٌ يُمثل حالة الجماهير تمامًا . .

أعزل ، مثلما هى عزلاء . .

فقير ، مثلما هم فقراء . .

مضطهد ، كما هم مضطهدون . .

ولقد وُجد الرجل . .

وُجد روح الله وكلمته . .

وها هو ذا . .

الجموع من حوله ، وقد تعلقت به أبصارهم فى انبهار ووَجل . .

ودهاقنة الطبقة المستعلية ، أمامه ، وجهًا لوجه .. لا .. بل وجوهًا منكسرة ذاوية .. أمام وجه متهلل ، وجَبْهة عالية .

وفى سخرية ماحقة يبدأ حملته :

« على كرسىّ موسى . . .

« جلس الـكتبة ، والفرّيسيون . . !
« فـكل ما قالوا لـكم أن تحفظوه ، فاحفظوه . .
ولـكن حسب أعمالهم لا تعملوا . . لأنهم يقولون
مالا يفعلون » . . ! !

وتنبعث همهمة استنكار من جانب السّادة ، ولـكنها تتلاشى سريعاً في خضم الإعجاب الذى جاء من جانب الحشود . .

ويستأنف حديثه عن أشراف « أورشليم » الممثلين أمامه فى الـكهنة ، والـكتبة ، والفريسيين ؛ فيقول :

« إنهم يحزمون أحمالا ثقيلة ، عسرة الحمل ،
ويضعونها على أكتاف الناس . . وهم لا يريدون
أن يحركوها بأصبعهم . .

« وكل أعمالهم يعملونها ، لـكى ينظرهم الناس . .
فيعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم . .
ويحبون المُتَّـكَأ الأول فى الولائم . . والمجالس
الأولى فى المجامع . . والتحيات فى الأسواق . .
وأن يدعوهم الناس ، سيدى . . سيدى » . . ! !

ثم يندفع صوته فى هدير ، حار ، متوهج . .
وتتعلق أبصار الجموع بكلماته كأنها الحِمَى ، والنجدة ، والملاذ . .
« . . لـكن ويل لـكم ، أيها الـكتبة والفرّيسيون

المراؤون ، لأنكم تغلقون ملكوت السموات
قدَّام الناس ، فلا تدخلون أنتم ، ولا تدعون
الداخلين يدخلون . . !
«ويل لكم ، أيها الكتبة والفريسيون المراؤون . .
لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ، ولعِلّة تطيلون
صلواتكم . . لذلك تأخذون دينونة أعظم » . . ! !

وتختلج على وجوه الناس بشائر قوة وعزم . . فيلقفها المسيح ، وينفخ فيها من روحِه لتنمو . . ثم يدمدم بسخريته على السادة :

« ويل لكم ، أيها القادة العميان . .
« القائلون : من حلف بالهيكل ، فليس بشيء . .
ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم . . !
« أيها الجهال والعميان .
« أيُّمَا أعظم . . الذهب . . ؟ أم الهيكل . . ؟
« ويل لكم ، أيها الكتبة ، والفريسيون المراؤون.
« لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة . . تظهر من خارج
جميلة . . وهي من داخل مملوءة عظام أموات . . .
« وهكذا أنتم أيضاً ، من خارج تظهرون للناس
أبراراً ، ولكنكم من داخل ، مشحونون
رياء وإثماً » . ! !

لحساب من كانت تلك الحملة الصاعقة على محرّفى الشريعة ومستعبدى الإنسان . . ؟ ؟

كانت لحساب « الناس العاديّين » . . لحساب الإنسان ، وكرامته ، وحقوقه . .

لحساب بعثه العظيم الذى جاء المسيح يمهد له الطريق ، وينحى عنه أولئك الذين « يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ، ويضعونها على أكتاف الناس » .

* * *

والآن .. إلى رفيق عيسى ، وأخيه .. إلى « محمد » لنبصر موقفه مع (الرجل العادى) .. وموقفه من مستغليه . .

ولسوف يبهرنا بمثل ما بَهَرَنا به المسيح . .

ولا بِدْع .. فروحاهما العظيمان ، سُقِيا بماء واحد ، واصطنعهما لنفسه أحسن الخالقين . .

والتجربة لدَى الرسول ، رائعة ، وحاسمة . .

إذ نشهد فيها الرسول نفسه ، وهو يَتَلقى من ربه الكبير خطّة العمل ، والنهج الذى يحدد واجبه تجاه (الرجل العادى) . .

كيف . . . ؟ ؟ ؟

إليكم النبأ العظيم .

عندما أذاع « محمد » دعوته ، اقترب منه الفقراء ، والمستضعَفون شأن كل دعوة حية ، طالعة ، منقذة . .

وذات يوم ، طرق بابَ الرسول مبعوث لأشراف مكة وكبرائها ، يقول له :

« يا محمد ، إن أشراف قومك يرون أن يستمعوا لك ، ولكنهم لن يجلسوا مع صعاليك مكة وفقرائها .. فإن شئت أن تجعل لهم يوماً ، ولأتباعك يوماً . . »

والرسول بطبعه ، لا يحمل فى نفسه ، ولا فى تفكيره ، ولا فى سلوكه ، أدنى اعتبار لمثل هذا التمايز .

وهو إذن لا يرى بأساً فى أن يجيب هذه الرغبة ، حتى يربح الإيمان والفضيلة ، تلك النفوس الشاردة ، وعندئذ ، سيبحث هؤلاء أنفسهم عن الفقراء والصعاليك ليجالسوهم ، ويزاملوهم ، بعد أن تَلين قلوبهم لذكر الله وما نَزَل من الحق .

ويطلب الرسول إلى الرجل أن يعود إليه فى غد ، حيث يكون قد فكر .. أو يكون قد جاءه من الله وحى .

وفى غد ، يرجع مبعوث الأشراف فى ميعاده ، ليتلقى من الرسول رفضاً أكيداً . .

ماذا حدث . . ؟

لقد جاءت كلمات الله ، تحمل للرجل العادى أعظم تكريم .

ألم يكن السادة يريدون لأنفسهم مجلساً غير مجلس الناس العاديين . . ؟ ؟

لا .. لن يكون لهم ذلك أبداً . .

« واصْبِرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ ، يريدون وجهه . ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطاً » .

« ولا تطرد الذين يَدْعون ربهم بالغداة والعَشِى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء . فتطردهم ، فتكون من الظالمين » . .

انظروا . .

إن رغبة السادة هذه ، لو تحققت ما ترتب على تحقيقها ضياع حق للآخرين . . ثم إنها قد تفضى بقوم ضالين إلى الهداية ، والخير . . وعلى الرغم من هذا ، يرفضها الله فى حسم ، ويعتبرها من زينة الحياة الدنيا التى لا ينبغى لرسول أن يريدها . . !

إن روعة هذا المشهد تتمثل فى كشفه عن مكانة الرجل العادى فى عين الله .. وفى تبيانها غيرة الله على ذلك الإنسان العادى .

إن الله سبحانه ، ليجعله موضوع وصية مفعمة بالحنان ، مترعة بالمحبة . حين يقول لنبيه :

« ولا تَعْدُ عيناك عنهم » ..

ويعتبر التمايُز ، طرداً لهم وظلماً .

فيقول لرسوله : « وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم ، فتـكون من الظالمين » .. !!

ويسير الرسول وَفْق هذا التعليم السديد الرشيد العظيم .. فلا يكاد يبصر الناس العاديين هؤلاء ، قادمين نحوه ، فى أى ساعة .. فى أى يوم ، حتى يتلقاهم بحفاوة ، ويبسط لهم رداءه ليجلسوا فوقه ، ويقول :

« أهلا بمن أوصانى بهم ربى »

الإنسان العادى إذن . الذى يمثل جمهرة الأمة والشعب فى كل بلد . كان وصية الله لمحمد ، مثلما كان وصيته سبحانه للمسيح .. مثلما كان وصيته لـكل نبى ، وكل رسول .

وكما رأينا المسيح يعمق هذا المعنى فى وعى تلامذته ، نرى الرسول يعمقه فى وعى أصحابه .

ذات يوم ، يمر به رجل بادى الفقر والمسكنة .

فيسأل النبى جلساءه :

« ما تقولون فى هذا » . !

فيجيبون : « هو والله خليق إن خَطَب ألا يُزَوَّج . وإن تـكلم ألا يُصْغى إليه » .

ويصمت الرسول حتى يمر رجل آخر عليه مخايل النعمة ومظاهر الثراء .. فيسألهم :

« ما تقولون فى هذا . . » ؟؟؟

فيجيبون : « هو والله ، حَرِىٌّ إن خطب أن يزَوَّج . . وإن تحدث أن يُستمع له » ..

فيقول لهم الرسول :

« والذى نفسى بيده ، إن الأول ، لخير من مِلْء الأرض من مثل هذا » .. ؟

هنا رسول ، يحرر قيمة الإنسان من زيف ، وزور . يحررها من الأوضاع الكاذبة المفتعلة ، ويردها إلى مكانها الحق ، فى جوار الخير ، والعدل ، والحق ..

ولا يترك الرسول فرصة لتكريم الناس البسطاء العاديين ، إلا اهتبلها .

يقف بين يدى الله داعيا ضارعا :

« اللهم أحينى مسكينا ، وأمِتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » .

وإذ كانت « الجنة » تمثل فى دينه ودعوته ، أرفع المثوبات ، وأبقاها وأقصى الدرجات العُلى ، وأسماها ، فقد أراد عن هذا الطريق ، أن يكرم (الرجل العادى) تكريما ، يجعل الأشراف والسادة يتطامنون ، ويتمنون لو لم يكونوا أشرافا ، ولم يكونوا سادة .. ؟؟

ماذا قال « الرسول » فى هذا المقام .. ؟

قال :

« قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين » .

وهو يبحث دوماً عن الناس العاديين ، ليجالسهم ، ويقول :

« ابغونى — أى اطلبوا لى — ضعفاءكم »

ثم يقرر الصفة الاجتماعية لهم ، وكيف أنهم الكادحون ، المنتجون للثروة ، وللدخل القومى .. فيقول :

« إنما تنصرون ، وترزقون بضعفائكم »

والرسول حين يستعمل كلمة « مسكين » وكلمة « ضعفائكم » ، لا يعنى بالمسكنة ، الهوان .. ولا يعنى بالضعفاء ، العجزة ..

وإنما يعنى الناس البسطاء الذين يأخذون فى « الكادر » الاجتماعى مكانا بسيطا متواضعا ..

ولم يقتصر تكريم الرسول للرجل العادى على تمجيده ، وتمجيد تواضعه ، وحياته العاملة المتعففة .. بل شاركه هذه الحياة ..

لقد كان أكثر أهل المدينة فقراء ..

فالإنتاج محدود ، والدخل قليل ، فأخذ الرسول عليه السلام مكانه إلى جوار الأكثرية الفقيرة ..

كان يستطيع أن يحيا حياة أرغد ، بنصيبه من الفىء ، والغنائم ، وبالهدايا التى لا تنقطع قوافلها .. ولكنه أبى .. وجعل ذلك كله أو معظمه ، من حظوظ أمته وأصحابه .. لا حبًا فى الجوع ، ولا اختيارا للفقر .. ولكن مشاركة للأكثرية ، ومعاناة لما تعانيه . تقول السيدة

عائشة زوجة الرسول :

« كان يأتى علينا الشهر ، ما نوقد فيه ناراً .. إنما هو التمر ، والماء » ..

وتقول :

« ما شبع آل محمـــد من خبز البُرِّ ثلاثاً ، حتى مضى لسبيله » ..

وتقول :

« ما أكل آل محمد أكلتين فى يوم واحد إلا وإحداهما تمر » ..

ويقول هو ، عليه الصلاة والسلام :

« لقد أُخِفْت فى الله ، ما لم يخف أحد .. وأوذيت فى الله ، ما لم يؤذَ أحد .. ولقد أتى على ثلاثون ما بين يوم وليلة ، ومالى ولبلال من الطعام ، إلا شىء يواريه إبط بلال » .. !!

مرة أخرى .. لم تكن هذه الزهادة عن حاجة وفقدان دائماً .. بل كانت طريقة مختارة ، وخطة مقصودة .. ولقد فتحت عليه دنيا من الخيرات ، فما غير من سلوكه هذا شيئاً .. بل كان حين يجيئه الفىء ويوزعه بين أصحابه ، يرجىء ابنته « فاطمة » ويقول : « حتى يكتفى الناس أولا » .. !!

وكثيراً ما كانت الأعطيات تتقاصر دون حاجات الآخذين.. ولا تنال فاطمة منها منالا ، فترضى ، وتصبر ، لأن أباها العظيم قد وضع لأهل بيته شعارا فحواه « أن محمداً وأهله ، هم أول من يجوع ، إذا جاع الناس . . وآخر من يشبع ، إذا شبع الناس » ..

لم يكن هذا السلوك من الرسول عن خصاصة إذن .. لا .. ولا كان تمجيداً للفقر الذى جعله الرسول فى بعض أحاديثه توأم الكفر .

إنما كان :

* تكريماً للكدح ..
* وإعزازاً للبساطة ..
* وتوقيراً للرجل العادى ، الذى هو الأمة ، والشعب ..

* * *

وللإنسان حقوق كثيرة ، لابد من صيانتها ، حتى يستطيع أداء دوره فوق الأرض .

وعلى رأس هذه الحقوق جميعاً .

* حق معاشه ..
* وحق ضميره ..

وإن هذين الحقين ليكادان يلخصان حقوقه كلها ، تلك الحقوق التى تفتحت عليها أبصار وبصائر الرسولين الكريمين ، محمد ، والمسيح .

أما حق المعاش ، فيعني تحقيق كافة الظروف الاقتصادية التي تهيء للإنسان حياة عادلة ، رغيدة .

وهو لهذا ، يهدف إلى حماية الإنسان من الاستغلال والنهب ..

وحماية الثروة العامة التي هي حق الناس جميعاً ، من ضراوة المحاباة ، ومن كل فنون السرقة ، والسفه ، والاختلاس ..

لقد دمدم المسيح كثيراً بكلمات لاهبة على أولئك الذين يستمرئون عرق الكادحين ؛ وحقوق العاملين .

أولئك :

« الذين يأكلون بيوت الأرامل ، ولعلة يطيلون الصلاة » .

و « الذين يظلمون الفعلة ، والحصادين ، بينما صياحهم قد وصل إلى رب الجنود » .

وإنه لجدير بأن يفعل ، وما كان ليترك الظامئين إلى العدل ، يعانون جفاف الحلوق ، واستعار الهجير ، بينما حفنات من المترفين والمستغلين ، يتبذخون في البحبوحة ، والظل .

ما كان له أن يصرف نفسه عن هذا الوضع ، فإنه ليعلم أن عاقبة ذلك الخسر والوبال للأمة التي يعبث فيها هذا التمايز الظلوم ..

إنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويمزقها ..

و « كل مملكة منقسمة على ذاتها ، تخرب . . وبيت

منقسم على نفسه يسقط » ..!!

لقد كان الوضع الاقتصادى فى الجماعة اليهودية أيام المسيح . رديئاً ، وقاسياً ..

كان وكلاء « روما » وتجار اليهود ، ورؤساء الكهنة سواء فى التآمر على عرق الكادح ، ولقمة الجائع .

ولقد تفتحت عينا المسيح فى طفولته ، وفى شبابه على السياط الباغية ، تسلخ ظهور الناس من أجل ضريبة تأخروا فى دفعها .

ولو طال به العمر ، لكان له مع هذه الأوضاع الشاذة وقفة طويلة ، وحامية .

لكنه رغم السرعة الوامضة التى ابثَّها مع دوره العظيم على الأرض ، وعلى الرغم من المُنْتَهى القريب الذى تعجَّل رحيله ، لم يترك ذلك الوضع دون أن يصححه بكلمات مضيئة وجامعة .

قال لتلامذته الاثنى عشر حين أرسلهم يكرزون بملكوت الله :

« لا يكن للواحد ثوبان » ..

وهتف طويلا بكلمات سلفه الشهيد « يُوحنا » :

« من له ثوبان فليعط من ليس له .. ومن له طعام ، فليفعل هكذا » ..

وذات يوم ، وهو يعبر الطريق وديعاً كأنفاس الزهر فى فجر الربيع ، لقيه واحد من الناس ، وسأله :

« أيها المعلم الصالح .. ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية » . . ؟؟

فأجابه :

« لمـاذا تدعونى صالحا . . ؟ ؟ ليس أحد صالحا
إلا واحد ، وهو الله .
« أنت تعرف الوصايا .
« لا تزن .. لا تقتل .. لا تسرق .. لا تشهد
بالزور .. لا تسلب .. أكرم أباك وأمك » .

قال الرجل : « يا معلم ، هذه كلها حفظتها منذ حداثتى » .

فأجابه المسيح :

« يُعْوِزُكَ شيء واحد . .
« اذهب ، بع مالك ، وأعط الفقراء » . . ! !

وهكذا ، فإن ابن الإنسان ، وهذه دعوته ، وهذا منهاجه وسلوكه ، لا يمكن بحال ، أن يقر أى نظام يقوم على استغلال العَرَق ، واحتكار الرزق ، وتجميد الثروة ، وتعويق فرص المعيشة الكريمة الطيبة . .

* * *

ويجىء محمد رسول الله ، فيصون حقوق العَمَل ، والعرق ، بتعاليم تناهت فى الرشد ، والذكاء :

« أعطوا الأجير أجره ، قبل أن يجفّ عرَقه » .

« لا تكلّفوا الصّبيان الكَسْب .. فإنكم متى

كلفتموهم الكسب سَرَقوا » .

وحين يكون هذا الأجير خادماً ، يرتفع محمد بمستواه ، ويعلو ..

« لا يقولن أحدكم عبدى .. وأمَتى .. وليقل فتاى وفتاتى » .

« .. هم إخوانكم فأطعموهم مما تطعمون ، وَألْبِسُوهم مما تَلبسون » ..

ولا تكون الثروة مشروعة وحلالا ، إلا إذا كانت من كَسْب طيِّب ..

والكسب الطيب ، هو الذى لا مكان بين وسائله ، للأنانية ، ولا للاحتكار ، ولا لاستغلال الكادحين والعاملين ..

ولأموال الشعب ، عند محمد حرمة جدّ عظيمة ..

إنه ليغفر كل الخطايا ، ويتلمس المعذرة لشتّى الآثام . إلا جريمة واحدة ، يرفع فى وجهها وفى وجوه مرتكبيها قصاصاً مشحوذاً ..

هذه الجريمة هى : العدوان على مال الشعب .

انظروا ...

أتاه ذات يوم ، رجل ، نادماً يعترف فى إسفار بجريمة « زنا » ارتكبها ..

وبعد أن استمع الرسول لقوله ، أراد أن يفتح له على المغفرة ، وعلى النجاة نافذة .. فقد لمح من ندمه الضاغط ، ومن توبته

الصادقة ، ما ينبىء بعزم أكيد على الاستقامة .. ومضى يحاول ثَنْىَ الرجل عن اعترافه .. كى يتحلّل هو من إنزال العقوبة به ..

ولكن هذا التسامح الرحيب ، يكاد يختفى تماما ، ليحلّ مكانه غضب مدمدَم ، وقصاص رهيب .. حين تكون الجريمة عدواناً على أموال الأمة ..

كان له — عليه الصلاة والسلام — خادم ، اسمه « رفاعة بن زيد » .. أصابه فى إحدى الغزوات سهم فأنهى حياته ..

وبعد انفضاض القتال ، أقبل أصحابه عليه يعزونه فى خادمه ، وقال قائلهم :

« هنيئاً له ، يا رسول الله .. لقد ذهب شهيداً » .

فأجابه الرسول فى أسى :

« كلا . . إن الشّملة التى أخذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه ناراً » . . !!

أرأيتم . . ؟

إن هذه الشملة ، ما دامت جزءاً من غنيمة ، أوفىء ، ليست ملكاً لأحد .. إنها حق الجماعة كلها ، حتى ينال كلٌّ حظّه ونصيبه .

ولقد أخذها الغُلام ، وما تساوى أكثر من دراهم قليلة .. ولقد خَدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات شهيداً .. ومع هذا كله ، بقى مطوّقاً بوزره الصغير .

ولكن ، من قال إنه وزر صغير ..؟؟

إنها السرقة .. يستوي فيها القروش الضئيلة .. والملايين الكثيرة . سيّما حين تكون سرقة أموال عامّة .

ويعلم الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً ، أن أحد الولاة ، قبل هدية .. فيغضب غضباً شديداً ، ويستدعيه إليه ، فيأتى حثيثاً .. ويسأله الرسول صلى الله عليه وسلم :

— كيف تأخذ ما ليس لك بحق ..؟؟

ويجيب الوالى معتذراً :

— لقد كانت هدية ، يا رسول الله .

ويسأله الرسول :

« أرأيت ، لو قعد أحدكم فى داره ، ولم نُوَلِّه عملا ..
أكان الناس يهدونه شيئاً » .؟!

ويأمره أن يرد الهدية إلى بيت المال .

ثم يعزله عن ولايته وعمله .!

هكذا أعطى المسيح ، وأعطى الرسول حق المعاش للإنسان ، من عنايتهما ، ومن تعاليمهما ، ما يجعل العمل من أجل التوزيع العادل للثروة .. والتوفير الكامل للرخاء ، واجباً محتوماً على المؤمنين بهما ، السائرين على نهجهما .

والآن .. إلى حق الضمير .

لست أعنى بالضمير هنا ، الوظيفة النفسية التى تثير فى الإنسان الندم على شَرّ ارتكبه ، أو تحفزه إلى خير تقاعس دونه .

إنما نعنى بالضمير الإنسانى فى مقامنا هــذا ، غاية أبعد ، ومعنى أرحب . .

نعنى به فى عبارة واحدة موجزة : « الإنسان فى وجوده الحقيقى » .

هذا ، هو الضمير الذى سنرى الآن كيف حمى المسيح حقه ، ورفع محمد لواءه .

إن الذى قال : « لم يخلق الإنسان من أجل السَّبت ، وإنما خلق السبت للإنسان » ، جدير بأن يكون صاحب فضل عظيم فى تحرير الضمير البشرى . .

ولقد قالها المسيح . . ولا أكاد أعرف عبارة تلخّص حقوق الضمير البشرى ، وتعلن جلاله ، أوفَى من هذه الحكمة الفذّة العظيمة . .

ولنبدأ من البداية . . .

حين تقدم المسيح ليعانق دوره العظيم ، ويبلّغ رسالات ربه . . كان الضمير الإنسانى فى تلك الرقعة من الأرض التى يسير عليها ، مصفداً بأغلال مبهمة ، وثقيلة . .

كانت « المساومة » تمحقه ، وتذلّه . .

فكل سكينة نفس . . كل طمأنينة قلب . .

كل مغفرة ترتجى . . كل فضيلة تلتمس . .

كل حرّية تراد . . يتقاضى عليها رؤساء الكهنة أجراً . . ! !

كل عطاء دينى بثمن .. دخول الهيكل بثمن .. التماس البركة بثمن .. الصلاة للرب بثمن . . ! !

وهكذا يترنح الضمير فى لوثاتٍ مساومة موحِلة ، ومتاجرة مسعورة . . حتى تحوّل إلى « آلة حاسبة » كل عملها ، أن تحصى موبقات أصحابها . . ثم تحصى أثمان مغفرتها ، وكفّارتها . . ! !

هذا ، أوّل .

* كذلك كان الضمير « مجمــداً » لحساب أهواء ، وتقاليد ، وطقوس ، لا تسمح له بمناقشتها ، ولا باستحسان غيرها ، حتى لو يكون خيراً منها . .

ويرزح تحت وصاية غبية ، يقيمها حرّاس هذه التقاليد وسدَنتها .

وهكذا عاش الضمير فى كبت قاتل ، لا يملك حق المعارضة ، ولا حق التعبير عن نفسه .

لا يستطيع أن يناقش مساوىء الحــكم ، لأن حكام « روما » وجنودها ، لا يرحمون من يفعل . .

ولا يجرؤ أن يناقش خرافات الــكُهّان ، وضراوة التقاليد ، لأن الــكُهّان أشدُّ قساوة وغِلظة .

* وشىء آخر .. فالضمير البشرى فى هذه البيئة ، كان يعانى اختناقاً مريراً . .

كانت عنصريةٌ ضيقةٌ عطنةٌ ، تحتبسه داخل كهفها المظلم ، بعيداً

عن هواء التسامح المنعش ، والأخاء الرطيب الحانى . . ذلك أن « شعبُ الله المختار » كما كان اليهود يسمون أنفسهم ، يعيش داخل مركب نقص شنيع .. يوحى إليه دائمًا أنه خُلِق ليحكم العالم ، ويسود الأرض . .

وأنه أشرف من كل الأجناس ، والألوان ، والأمم . .

وأنه ينبغى ، بل يلزمه أن يصون دَمه وسلاَلاته عن التلوُّث بالدُّخلاء . .

والدخلاء ، هم جميع بنى آدم من غير اليهود . . !!

ولا شيء يفنى الضمير الإنسانى ، ويمحقه مثل تفكيرٍ من هذا النوع ، وحياة من ذلك الطراز .

والآن ، يتقدم « روح الله » المسيح عيسى ابن مريم ، ليحرر ضمير الإنسان فى تلك الرقعة ، وفى ذلك الزمان من ويلات أسره ، وظلمات سجنه . . ولتظلّ كلماته ومواقفه التى سيحرر بها الضمير ، دستوراً حافزاً مضيئًا لكل البقاع . . وكل الأزمان . !

بدأ ، فأنقذ الضمير من وطأة المساومة ، وحرره من ربقة النفعية .

وإذا كانت ، هذه المساومة ، تعتمد على التخويف الدينى ، وتستغلُّ الضعف الإنسانى ، أدنأ استغلال . . فقد بدأ عمله هنا ، ببعث الثقة فى رحمة الله ومغفرته . . كما دَغدغ ضراوة الشعور الحادّ بالذنب حين يكون هذا الذنب فرديًّا . .

أما حين يكون إثمًا « جماعيًا » أى رذيلةَ « طبقة » خاصة ، تحقق

لهذه الطبقة نفعاً ، أو امتيازاً ، أو سلطاناً غير مشروع . . فإنه يدمدم ، ولا يتسامح . .

حدّث الإنسانَ الضعيف ، عن « الأب السماوى » . . الرب البار الرحمن الرحيم :

« . . من منكم — وهو أب — يسأله ابنه خبزاً ،
فيعطيه حجراً . . أو سمكة ، فيعطيه حية . . أو بيضة ،
فيعطيه عقرباً . . ؟ ؟

« فإن كنتم — وأنتم أشرار — تعرفون أن تعطوا
أولادكم عطايا جيدة .. فكم بالحرى أبوكم الذى
فى السماوات . يهب خيرات للذين يسألونه » . . ؟ ؟

وتأتيه الخاطئة ، يزفها الكهنة والجلادون فيلقى عليها نظرة طيبة آسية يلمح خلالها الضعف الإنسانى الكامن فى كل إنسان .. ثم يرفع بصره صوب غلاظ الأكباد ، قساة الضمائر ، وقد ملأوا أيديهم بالحجارة الحادة تأهباً لرجمها ، فيقول لهم كلماته المأثورة :

« من كان بلا خطيئة ، فليرمها بحجر » .. !

وعلى الرغم من هدوء كلماته هذه ، فقد نفذت إلى أفئدتهم كرصاص مقذوف ..

وتمثلت لهم خطاياهم .. وإذ احتواهم ذهول وخزى .. التفت هو نحو المرأة ، وسألها :

« هل دانك أحد » ؟ ؟

وأجابته :

كلا ، يا معلم .

فيقول لها ، وهو يخاطب فيها الضمير البشرى القابع المقدوح تحت وطأة إحساسه المذل بالخطأ :

« ولا أنا أدينك .. اذهبي ، ولا تخطئى » . ! ! !

إنه موقف جدير بابن الإنسان .. ابن الإنسان الذى جاء ليخلص الأنفس لا ليهلكها ..

وأولئك المدفونون أحياء تحت ركام الخوف ، والهول ، والخطيئة جديرون بيده الحانية الرحيمة ، تأخذ بهم فى رفق كبير إلى إله طيب ، بر ، كريم ..

وليس معنى موقفه هذا إباحة الإثم . .

أبدا . . فهو لا يفتأ يذكر بحق أنفسنا علينا ، بل ويعلمنا أن الخطيئة نفسها جزء من الأغلال التى يرسف فيها وجودنا ، وعلينا ، ونحن نحررها أن نفطمها عن نزواتها .

« ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله ، وأهلك نفسه أو خسرها » . .

لكنه ، وهو يدعونا لتحرير أنفسنا من الإثم ، إنما يفعل هذا بروح أخ ودود . . لا جلاد كنود ..

لكأنه ، وهو يرمق « الخاطئة » بنظرته الوديعة ، كان يسأل نفسه :
إذا نحينا عن هذه ، الخاطئة .. فماذا يبقى .. ؟
يبقى الإنسان .. !!
حسن هذا .. وكل البشر إذن كذلك .
وإذن مرة أخرى ، فلا ينبغى أن نسحق أرواحهم وضمائرهم ووجودهم باللوم القاتل .. إنما علينا أن نوقظ فيهم « الإنسان » ليطرد عنهم « الشرير » ..

ذلك منهاج ابن الإنسان الذى لم يأت ليطبب الأصحاء .. بل ليعالج المرضى والذى لم يأت ليدعو « أبراراً للتوبة ، بل خطائين » .

والآن نشهد موقفاً آخر له ، فتغمرنا حرارة مودته ، ودفء حنانه .. ونجد فيه الأب ، والأخ ، والصديق .. والقلب الكبير .. الكبير .. السّمْح .. السّمْح .

ذات يوم دعاه أحد الفريسيين إلى طعامه ، وإذ هو جالس ينتظر الطعام ، اقتحمت عليه الدار فى اضطراب وتعثر ، امرأة .

لم تكد تبصره حتى أكبّتْ على قدميه تغسلهما بدموعها ، ثم تجففهما بشعر رأسها ، ثم تعود فتضمخهما بطيب كان معها .

ويجىء الفريسى من داخل داره ، فيرى المشهد ، ويبصر المرأة فيعرفها .. إنها واحدة من بائعات اللذة والهوى ..

ويفرك يديه مسرورا ، فهذه فرصة جدّ طيبة لاختبار المسيح ،

فإن يك مسيحاً حقا ، فسيعلم الآن ، من هذه التى تلمسه ، وتقبّل قدميه .

ويقرأ المسيح حديث نفسه هذا .. ويلقى عليه ، وعلى الدنيا كلها درساً ، موجها الحديث إلى تلميذه « سمعان » وكان ساعتئذ معه :

« يا سمعان ..
« عندى شىء ، أقوله لك » .
« قل ، يا معلم » .

ويستأنف المعلم العظيم حديثه :

« كان لمداين مديونان .
« على أحدهما خمسائة دينار .. وعلى الآخر خمسون .
وإذ لم يكن لهما ما يوفيان ، سامحهما جميعاً .
« فقل : أيهما يكون أكثر حبًّا له » ؟ ؟ ؟

ويجيب « سمعان » :

« أظن ، الذى سامحه بالأكثر »

ويقول السيد المسيح :

« بالصواب حكمت » .

ثم يلتفت شطر الإنسان ، شطر المرأة الخاطئة .. التى ذهب عنها « الشرير » ، وبقى فيها « الإنسان » ، ويقول لها وعلى شفتيه الودودتين ابتسامة كضوء الفجر :

« إيمانك ، قد خَلّصك ..

« اذهبي بسلام » . . !!!

* * *

أيُّ قلب ذكي ، كان يحمله يسوع . ؟؟

وأي بر بالضمير الإنساني أسخى من هذا البر . ؟؟

أي صداقة ، تشدُّ أزر الإنسان فى ضعفه ، أوْفَى من هذه الصداقة . ؟

وموقف آخر ، يُعمق به هذا الفهم فى وعى الناس ، ويطالبهم أن ينتهجوه ، ويتخذوا منه سلوكا .

يسأله « بطرس » :

« كم مرة يخطىء إلىّ أخى ، وأغفر له ؟ هل إلى سبع مرات » ؟

ويجيبه المسيح :

«لا أقول لك إلى سبع مرات ، بل إلى سبعين مرة »

وعلى طريقته العذبة السديدة ، يضرب مثلا ؛ فيقول :

« يشبه ملكوت السموات ، إنساناً ملكاً ، أراد أن يحاسب عبيده .. فلما ابتدأ فى المحاسبة ، قدم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة .. وإذ لم يكن له ما يوفى ، أمر سيده أن يُباع هو ، وامرأته ، وأولاده ، وكل ما له ، ويوفى الدين ..

« نخر العبد وسجد قائلا : يا سيد ، تمهّل علىّ ،
فأوفيك الجميع .
« فتحنّن سيد ذلك العبد ، وأطلقه ، وترك له الدين .
« ولما خرج ذلك العبد ، وجد واحداً من العبيد
رفقائه ، كان مديوناً له بمائة دينار ، فأمسكه ، وأخذ
بعنقه قائلا : أوفنى مالى عليك ...
« نخر العبد رفيقُه على قدميه ، وطلب إليه قائلا :
تمهل علىّ فأوفيك الجميع .. فلم يرد ، بل مضى وألقاه
فى سجن حتى يوفى الدين .
« فلما رأى العبد رُفقاؤه .. ما كان ، حزنوا جداً ،
وأتوا وقصّوا على سيدهم ما جرى .
« فدعاه حينئذ سيده ، وقال له : أيها العبد الشرير ،
كل ذلك الدين تركته لك ، لأنك طلبت إلىّ ..
أفما كان ينبغى أنك أنت أيضاً ، ترحم العبد رفيقك
كما رحمتك أنا » ..؟!

هكذا يقيم المسيح بين الناس تكافلا وتضامناً ، ضدّ الآثام ، التى هم فيها سواء ، وشركاء .. وضد وطأتها الضاغطة على الضمير البشرى ، حين تتخذ أداة تحقير له ، وإذلال :

« إن فرح السماء بخاطىء واحد يتوب ، أكثر من
تسعة وتسعين باراً ، لا يحتاجون إلى توبة » !

« اغفروا إن كان لكم على أحد شيء ، لكى يغفر
لكم أيضاً أبوكم الذى فى السماوات » .

* * *

وماذا صنع المسيح بثانية الأثافى التى كانت تدغدغ الضمير الإنسانى وتؤوده .. وهى حرمانه من حق الشكوى والمعارضة ؟ !

لقد كان موقفه من هذه عظيما وحاسماً ، مثل مواقفه جميعاً ..

ولقد رأينا من قبل ، كيف واجه رؤساء الكهنة ، والكتبة ، والفريسيين ، أمام الحشود من الناس .. وكيف سخر منهم ، وناداهم : يا أولاد الأفاعى .. وهم الذين تعودوا تقديساً مطلقاً ، أو شبه مطلق .

لقد كان المسيح بخطبته تلك ينادى الضمير السجين إلى تمرد مشروع

وحين كان يأخذ طريقه إلى الهيكل ، ووجد الباعة ، والصرّافين ، والكهّان المحترفين ، يملأون رحابه .. أقبل عليهم ، يكفأ موائد الصيارفة ، ويبعثر سلعهم ، وينادى :

« مكتوب ، إن بيتى بيت صلاة ، وأنتم جعلتموه
مغارة لصوص » !

ثم يهز رأسه فى غيظ مضطرم ساخر ، لكنه وديع ، ويقول :

« يا أولاد الأفاعى » . . !

وهو يرسم لتحرير الضمير نهجاً قويماً حين يقول :

« تعرفون الحق .. والحق يحرركم » .

الحق يحرّرنا .. ؟

ما أوفاها عبارة ، وما أغناها حكمة .

ليس الهوى ، ولا القوة ..

إنما هو الحق وحده ، القادر على أن يهب الإنسان تحرُّراً صادقاً ، رشيداً ، لا زيف فيه ولا تأويل .

وأمام الحق ، لا يجوز لشيء مّا ، أن يقف ، ويتشامخ .

ولسوف يضرب المسيح لهذا مثلا من سلوكه حين يتحدّى عقيدة « السَّبت » تحدياً أخاذاً .. وبذلك يبعث « حق المعارضة » بعثاً عظيماً ويهب الضمير البشرى خلاصاً أكيداً .

قرأتم فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب ، أن اليهود تركوا « أورشليم » تسقط فى أيدى الغزاة السلوقيين .. عندما اختاروا لمهاجمتها يوم سبت .. وآثر اليهود سقوطها على أن يقاتلوا يوم السبت ، حيث تمجّد البطالة وتقدس الراحة .. !

وهذا ، يشير إلى مدى ما كان لخرافة السبت فى أفئدتهم وفى عقولهم من رسوخ وولاء ..

إنهم — يوم السبت — لا يكرزون ، ولا يعالجون .. ولا يعملون عملا .

فإذا جاء من يتخطّى هذا كله ؛ فيكرِّز يوم السبت ، ويعظ ،

ويداوى .. فقد ضرب التقاليد الضارية ، ضربة قاضية .. وفتح للضمير المفدوح بثقلها الجاثم ، وجوها الخانق الآسن ، نافذة على الأفق المشرق ، والهواء النقى .

ولقد فعلها المسيح ، ولم يقم وزناً لثورة الكهان ، والفريسيين ، بل جعلهم بسخريته الذكية صغاراً مبهوتين ..!

جاءته امرأة فى يوم سبت تعانى علة موجعة ، فمنحها المسيح من روحه ما غالبت به مرضها ، ووجدت بسببه البرء ، والعافية . .

ووجدها رئيس المجمع فرصة مواتية ، ليَشُنَّ على المسيح هجوماً « مقدساً » ..!

واقترب منه ، والناس يسمعون ، وقال له :

« كيف تبرىء فى يوم السبت » ..؟

وأراد المسيح أن يلقنه درسًا لا يفيق منه ، فقال موجها الخطاب إلى مقامه الكهنوتى الرفيع ..!!

« يا مُرَائى ...

« أفئن سقط حمارك فى بئر يوم السبت ، أنقذته وأبرأته ...

« وحين يمرض إنسان ، تتركه فى علته إلى يوم الأحد » ..؟؟!!

أهناك كلام يقال فى هذا المقام ، أعذب ، وأمتع ، وأروع ، وأنفذ

من هذا الـكلام . . ؟

ومرة أخرى ، أرادوا أن يلوموه ، لأنه يكرز فى يوم سبت . . فأجاب بعبارته الجامعة :

« إنما خلق السبت من أجل الانسان ، ولم يجعل الانسان من أجل السبت » . . !

إن الإنسان عند المسيح ، هو الشمس التى تدور حولها قوانين المجتمع وتسير . .

وإن له عنده لمـكانة عظمى . .

« الحق أقول لـكم ..

« إن من قال لهذا الجبل ، انتقل ، وانطرح فى البحر .. ولا يشك فى قلبه .. بل يؤمن أن ما يقوله يكون .. فمهما قال ، يكون له » ..

وهو إذ يضع عن الضمير الانسانى بذخ السلطان ، وضراوة التقاليد .. وإذ يقيمه فى مكان الند والنظير لـكل سلطة أخرى على الأرض ، فيناقش كما ناقش المسيح ، ويعارض مثلما عارض ، ويعتزّ بالحق ويتبعه ، كما اعتز المسيح به وتبعه .

هو إذ يفعل هذا ، لا ينسى أن يوصى تلامذته الذين يتمثل فيهم الضمير الناشىء ، المستيقظ ، ألا يتحولوا يوماً ما ؛ إلى سلطة تعوق الضمير . وتـكبله من جديد بما تنتهجه من غطرسة ، وضعف ، واستعلاء .

استمعوا له ، وهو يقول لهم :

« أنتم تعلمون أن الذين يحسبون رؤساء الأمم ، يسودونهم .. وأن عظماءهم ، يتسلطون عليهم .. فلا يكون هذا فيكم ..

« بل من أراد أن يصير فيكم عظيما ، يكون لكم خادمًا ..

« ومن أراد أن يصير فيكم أوّلاً ، يكون للجميع عبداً ..

« لأن ابن الإنسان أيضًا ، لم يأت ليُخْدَم ، بل ليَخْدُم ، وليبذل نفسه فِدْيةً عن كثيرين » ..

* * *

وأما الوصاية التى كان يفرضها على الضمير الانسانى جماعة المتنفعين بالتقاليد الغاربة ، والأساطير الضحلة ، فقد ألغاها المسيح بعبارة حاسمة .. وذلك حين قال واحد من الجمع :

يا معلم ، قل لأخى يقاسمنى الميراث ..

فإذا هو يجيب :

« يا إنسان ، من أقامنى عليكما قاضيًا ، أو مقسّما » .. ؟!

إنه موقف يغنى عن مواقف .. وإنها عبارة تمثّل دستوراً .

إن المسيح بها ، يسلم الضمير وثيقة رشده ويدعوه لمواجهة مسئولياته ، بعيداً عن كل وصاية متطفلة ..

* * *

والآن ، إن موقفه من الآفة الثالثة ، التى كان الضمير الإنسانى يعانيها فى البيئة التى جَلجلت فيها كلمات روح الله .

هذه الآفة ، هى العنصرية ..

كان « شعب الله المختار » !! يعيش كما قلنا من قبل ، داخل عقدته هذه ، منطوياً على نفسه ، وعلى نواياه الرديئة جداً ، ضد الناس جميعاً .

ولكن ، قبل أن نستطرد فى حديثنا هذا يحسن أن نعرف علاقة الضمير بالعنصرية .

لقد ذكرنا حين بدأنا الحديث عن الضمير الإنسانى ، ما نعنيه بهذا الضمير .

وقلنا : إننا نعنى به « الإنسان فى وجوده الحقيقى » ..

والوجود الحقيقى للإنسان ، يعنى التعبير الكامل عنه ، وفتح الطريق أمام طاقاته ، وإمكانياته ..

والانسان .. هو : الإنسان .

لا قيمة لاختلاف اللون ، واختلاف اللغة ، واختلاف القوم .

وإذا كان الناس خلال تطورهم ، قد عاشوا أمماً ، وشعوباً .. فإن شيئاً أسمى من ذلك يظلهم ، ويحتويهم داخل إطاره ، ويناديهم

إلى نفسه .. هو : الإنسانية ..

والعائلة البشرية ، حقيقة موجودة منذ وجد الإنسان .. ولكن ظهورها كواقع يتطلب ظروفًا ، على الإنسان أن يعمل من أجل توفيرها ، ومن أجل تَعَجُّل ميقاتها .. وفى هـذا يتحقق المفهوم الصحيح لاسمه ، ويتبدى الوجود الحقيقى له .

وإذن ، فكل تضليل له عن هذا الهدف ، وكل تقاعس به عن تلك الغاية ، يعتبر انتزاعًا له من وجوده الحقيقى .. وبالتالى فهو انتهاك لحقوق الضمير الإنسانى الذى عرّفناه من قبل بأنه « الإنسان فى وجوده الحقيقى » ..

ونعود لحديثنا الأول .. حيث كنا نقول إن اليهود كانوا يعيشون فى « قوقعة » معتمة ، من عنصرية حالكة .

وتحرير الضمير الإنسانى ، يتطلب تمزيق هذه القوقعة ، وتسريح هذه العنصرية .. أو بتعبير آخر .. فإن هدم هذه العنصرية يعتبر عملا جليلا ، ونافعًا بالنسبة لتحرير الضمير البشرى .

فماذا فعل المسيح تجاه هذا الأمر . . ؟

اقرأوا .. واعجبوا ..

كان يكلم الجموع يومًا ، وإذا أمه وإخوته ، يجيئون ، ويذهب من يقول له : أمك وإخوتك يريدون أن يتحدثوا إليك .

فيجيب :

« من هى أمى . . ؟ ومن هم إخوتى » . . ؟؟ !

ثم يبسط كفه المضيئة صوب تلامذته ، ويقول :

« ها ، أمى ، وإخوتى .. لأن من يصنع منشيئة أبى
الذى فى السموات ، هو أخى وأختى وأمى » .. !!

* * *

ويسلب من اليهود المفهوم الزائف المزور ، الذى يبرّرون به عنصريتهم المسعورة .

لقد كانوا يعتمدون على وعد يزعمون أن الله أعطاه لإبراهيم .. ويفسّرون هذا الوعد تفسيراً يرضى غرورهم ، وعنصريتهم ، وطمعهم فى احتلال الأرض كلها .. !

كما كانوا يتبذّخون على الناس بأنهم أبناء إبراهيم ..

فانظروا ، كيف يجردهم من هذه ، ويتركهم عُرَاة .. !

« يا أولاد الأفاعى ..

« لا تقولوا لنا إبراهيم أبًا .. لأنى أقول لكم :
إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً
لإبراهيم ..

« والآن .. قد وضعت الفأس على أصل الشجرة .

« فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً ، تقطع وتلقى
فى النار » .. !

يا لصدق الكلمات ، ويا لروعتها ..

إن انتسابكم لإبراهيم لا يفيدكم شيئًا مالم تكونوا مثله صالحين .

وليس هناك بشرٌ أفضل من بشر .

ولكن هناك شجر يعطى ثمراً جيّداً فسيبقى ، ويزدهر .. وشجر يعطى ثمراً رديئًا ، فهذا له الفأس ، تجتثّه ، وتبيده .

فيا أيها اليهود ، تحولوا إلى شجرة طيبة ، إذا أردتم أن تعيشوا ، وتحيوا ..

أرأيتم ..؟؟

أرأيتم إلى « يسوع » العظيم ، وهو يكافح العنصرية ، ليحرر الضمير الإنسانى من ربقتها ..؟

ألم يكن الدرس فى أوانه ، وفى مكانه ، حين قاله وألقاه .؟

وأليس ، يجىء فى أوانه مرة أخرى ، حين نردده اليوم ، ونرويه ..؟؟!

وفى مثال عذب فاتن حكيم ، يخرج الناس من قوقعة العنصرية ..

« ليس أحد يوقد سراجا ، ويغطيه بإناء ، ويضعه تحت سرير ..

« بل يضعه على منارة ، لينظر الداخلون النور » ..!

كذلك الأمم ، والشعوب ..

كل أمة تملك نوراً .. تملك علما .. تملك ثروة .. تملك ذكاء

ليس من حقها أن تنطوى عليه .. بل تضمه على المنارة .. تقدمه فى غير مَنٍّ ، وفى غير أذى للبشرية كلها .. فنحن جميعًا عائلة واحدة فوق هذا الكوكب الرحيب .

ويوجه للعنصرية ضربة مباشرة فى حكمة يرويها ، ومثل يضربه .. وذلك حين سأله سائل : مَنْ قريبى .. ؟؟

فأجاب:

« كان رجل مسافراً من أورشليم ، إلى أريحا .. وكان الطريق محفوفًا بأخطار اللصوص ، وقطاع الطرق .. فنصحته زوجته بالتريث حتى يجد من يرافقه فى سفره .. وإذ ذاك انبرى ابنه الصبى يقول : إن والد صديق له يزمع السفر فى نفس الطريق .

« وكان الآخر ، سامريا .. فلم يكد الأب يعلم هذا ، حتى انتفض كمن لدغته عقرب ، وصاح بابنه : كيف تصادق ابن سامرى نجس .. ؟ أما تعلم أن السامريين تصاهروا مع العجم منذ مئات السنين . ؟ إن فعلتك لو عرفت ، لأثرت فى عملى وتجارتى .

« ورفض الرجل اقتراح ابنه الصغير ، وسافر منفرداً. فهاجمه اللصوص فى الطريق . وسلبوه ماله وثيابه . وأصابوه بجرح ، ثم تركوه بين حىّ وميت .

« ومر به كاهن ؛ فرآه .. لكنه تغاضى عنه . ومضى فى طريقه ..

« ثم مر به رجل من عشـــيرته ، فتجاهله وواصل سيره .

« وأخيراً ، مر به « سامرى » ؛ فعطف عليه ، وتوقف ، فغسل جراحه ودهنها بالزيت . ثم أركبه على دابته ، وأوصله إلى فندق . وأوصَى صاحب الفندق أن يعتنى به .. ثم نفحه مالا كدفعة أولى، على أن يتقاضاه بقية النفقات فيما بعد » . . .

قصَّ المسيح هذه القصة ، وضرب هذا المثل ، ثم أتبعه بسؤال :

« أى هؤلاء ، يكون قريباً للمسافر » . ؟

فأجاب الرجل :

« من صنع معه الرحمة » .

هنالك قال المسيح :

« إذن ، اذهب ، وافعل هكذا » .

لقد جمع المسيح فى هذا المثـــال كل ملامح العنصرية الشائهة . . كما ساق فى نفس المثال ، العنصرية إلى معركة خرجت منها خاسرة منهوكة .. إن يهود « أورشليم » كانوا فى قطيعة مع السامريين ، لأنهم أصهروا إلى العجم . !

هنا يكشف المثال عن إيغالهم فى العنصرية .

وكانوا — أى يهود أورشليم — يحاربون من بنى جِلدتهم كل من يعامل السّامريين ، أو يخالطهم ..

ولـكن ، حين وقع الرجل فريسةً لقطاع الطريق ، الذين ربما كانوا يهوداً من بنى جنسه .. مرّ به « كاهن » .. فلم يهتم بأمره . . !

ومر به « سامرى » .. أى واحد من الذين يمقتهم ، ويقاطعهم ، ويعتبرهم رِجْسًا ونجاسة .. فسارع إليه ، وغسل جراحه ، ودهنها بالزيت ، ثم حمله على دابته إلى فندق .. حيث استأجر له فيه مكاناً طيباً مريحاً . . ! !

هذا ، هو القريب ، والصديق إذن ..

الذى يفعل الخير ، ويبذل العون ، مهما تـكن جلدته .. مهما يكن معدنه وقومه ..

وهكذا يزكّى المسيح ، الأخاء الإنسانى ، ويحطم سدود العنصرية المنحرفة ، المتبربرة .

فالناس جميعهم لدى المسيح إخوة .. وإخوة ضعاف ، يستحقون العون ، وبذل ذات اليد ، والنفس .. وإنه ليصوغ هذه الوجهة فى نبأ جليل ، فيقول :

« .. ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده ، وجميع الملائـكة القديسين معه .. فحينئذ يجلس على كرسى مجده .. ويجتمع أمامه جميع الشعوب .. فيميز بعضهم من بعض — أى يعـزل صالحها عن فاسدها — . .

« ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركى

أبى .. رِثوا الملكُوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم .. لأنى جعت فأطعمتمونى .. عطشت فسقيتمونى .. كنت غريباً فآويتمونى .. عرياناً فكسوتمونى .. مريضاً فزرتمونى .. محبوسًا ؛ فأتيتم إلىّ ..!!

« فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : متى رأيناك جائعًا فأطعمناك ..؟ أو عطشانًا فسقيناك ..؟ ومتى كنت غريبًا فآويناك ..؟ أو عريانًا فكسوناك ..؟ ومتى رأيناك مريضًا ، أو محبوسًا فأتينا إليك ..؟؟

« فيجيب : الحق أقول لكم .. بما أنكم فعلتموه بأحد إخوانى هؤلاء الأصاغر ؛ فبى فعلتم » ..!!

لم يقل بما أنكم فعلتموه بقومى .. بشعبى .. بيهود أورشليم ..

بل قال : بأحد إخوانى ..

وإخوانه ، كما قال من قبل ، هم الذين يعملون مشيئة الرب ، بغضِّ النظر عن جنسيتهم ، وأرُومتهم ..

ومشيئة الرب ، أن يعيش الناس إخوانا .. أحراراً .. خيرين .. سعداء ..

هذا — فى إيجاز — هو موقف المسيح من الضمير الإنسانى .

فهل نتجه الآن إلى محمد رسول الله ، لنطالع موقفه من الضمير الإنسانى أيضاً ..؟؟

وإنه لموقف باهر ، وعظيم .

* * *

« هَلاَّ شَقَقْتَ عن قلبه » ..؟

لو كُنَّا هناك ، ومحمد رحمة الله للعالمين ، يلقى هذه العبارة ، لرأينا مشهداً عجباً ..!

ولرأيناه ، وهو ينشىء لحقوق الضمير الإنسانى « برج حراسة » شاهق الارتفاع ، محكم النظرات ..

لقد ذكرنا من قبل أن الضمير كان مفدوحاً بوطأة آفات ثلاث :

* المساومة والتخويف .

* الإذعان الذى يحظر عليه النقاش والمعارضة ، ويلزمه بالخضوع لوصاية منهكة ..

* العنصرية التى تحرمه من تحقيق وجوده الصحيح ، داخل إخاء إنسانى رحيب .

وأمام هذه الطواغيت الثلاثة ، التى رأينا — قبلا — كيف أبلى المسيح فى مكافحتها ، وقف محمد ليجهز عليها ..

ولسوف يمضى كما مضى أخوه عيسى .. يرسل فى مِثل سنا الفجر ،

تعاليمه ، ويدعو فى رفق لاحترام الضمير .. وترك الإنسان يحيا داخل وجوده الحقيقى . .

وحين يتطاول الشر أمامه ، ويتشامخ ، فلن يدعه يتمكن منه . .

ويعتاق زحف النور الذى معه .. بل سيلقاه بالجواب الأشَدّ . . ويضع رأسه العنيد تحت حد السيف .

وحتى حين يتمثل هذا الشر فى قوى عارمة رهيبة ، لإمبراطوريتين كبيرتين ، كفارس ، والروم .. تواصل دعوة محمد زحفها لمطاردته .

ومن خلال هذا كله .. التعاليم المسالمة ، ومعارك المقاومة . . تبزغ حقوق الضمير على نحو جليل وفَذّ .

ولنبدأ من البداية . .

كان الناس يعبدون الأصنام ، ويستقسمون بالأزلام ، ويزجرون الطير ، ليستنبطوا منها فى سذاجة أمر مستقبلهم ، وخفايا غيوبهم .

وجاء محمد ليحرر هؤلاء الناس .

ماذا فيهم سيحرره . . ؟

سيحرر عقولهم من الخرافة ..

ويحرر وجداناتهم من الإفك . .

وينقذ وجودهم من الضياع ..

وينشر دعوته ، ويبلغ رسالات ربه .. ويصير له أصدقاء مؤمنون ، وأعداء مكذبون .

وذات يوم ، يجيئه أحد أصحابه مستأذناً فى طرد واحد يعتقد أنه منافق يتظاهر بالاسلام ليؤذى المسلمين ، ويشفى فى نفسه موجدة وشراً ..

وتقدم من الرسول يعرض رأيه .. طرد هذا الرجل من صفوف الجماعة .. لأنه يضمر لها شراً .. ؟؟

يضمر شراً ؟!

لكن ، أى تطفل على سرائر الناس هذا .. ؟

وأية رقابة على الضمير الذى جاء محمد ليساعده على النهوض . ؟

ويسأل الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبه :

— « هلا شققت عن قلبه » ؟!

ويعود الرجل فيتكلم :

يا رسول الله ، إنه يخفى فى نفسه غير ما يعلن ..

ويجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « إن الله لم يأمرنى أن أشق صدور الناس لأرى ما فيها » . !

عبارة وجيزة ، صيغت فى بساطة ويُسْرٍ ، لكنها تحمل مضموناً يشكل دستوراً هائلا ، وحافلا .. يحمى الضمير ، ويضع حريته بمنأى من التقحم والافتيات ..

وفى هذه البداية المشجعة ، تتمثل نقطة انطلاق الضمير فى شريعة محمد ..

فهذه الرعاية لحرمته ، والتقدير لحريته ، لا يمنحان تدليلا له ، ولا إفلاتًا لزمامه .. بل ليتعود حمل المسئولية واختيار المصير ..

« يا فاطمة بنت محمد ..

« اعملى ، فأنى لا أغنى عنك من الله شيئًا » ..

« من يعمل سوءاً يجز به » ..

« ليس للإنسان إلا ما سعى » ..

حين جاء محمد ، وجد الناس الذين بدأ بينهم دعوته ، يتعثّرُون فى وجود زائف ، وَيُمارسون حياة مزوَّرة ..

وما داموا ، لا يعيشون فى وجودهم الحقيق ، فالضمير الانسانى ، إذن يعانى محنة ويترنح إعياء . .

ولقد كان ذلك حاله ..

كان مستعبداً لأساطير الأولين ، ومنحنيًا دائمًا فى مذلة وغفلة ، أمام حجارة مرصوصة ، تسمى الآلهة . . ! !

وكان مجرد وجود صوت يقول : لا .. بمثابة إطلاق — أكيد — لسراح هذا الضمير ، ودعوة له ليمارس وجوده ، وحريته ..

ولقد جاء الذى سيقول : لا ..

وهو : محمد رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ..

وسيكون التاريخ هناك ، ينتظر سماعها منـــه ، ليبدأ من فوره شوطًا طويلاً ، ممتعًا ، جليلاً ، يطوف خلاله بمعظم الأرض ، حاملاً دعوة محمد .. معلنًا نهاية الوثنية .. ساحقًا بقدمه ، أو طاويًا

بيمينه ، أصنام العرب ، ونار الفرس ، وعبادة قيصر ، وهاتفاً بسيادة الإنسان على الأرض ..

فليس فيها بعد اليوم أكذوبة يعبدها ، أو قوة يسجد لها . .

الذين يعبدون « قيصر » لن يعبدوه بعد اليوم ..

والذين يسجدون للنار ، لن يسجدوا لها بعد اليوم ..

والذين يطوفون حول الأصنام ، لن يطوفوا بعد اليوم ..

وستتقطّع جميع الخيوط غير المنظورة ، التي تربط هؤلاء ، وأولئك بمعبوداتهم الباطلة ، وآلهتهم الزائفة .

وسيقف الإنسان فوق الأرض سيداً لا عبداً .. تدفعه إلى غايته حركة جديدة تابعة منه ، لا من أصنام ، ولا من أزلام ، ولا من قيصر ، ولا من كاهن ..

وشطر السماوات العلى .. سَيُيَمِّمُ وجهه ، حيث إله آخر . . إله واحد .. إله حق ..

لا ينام .. ولا يمرض .. ولا يموت .. ولا يحقد ..

إله ليس قيصراً . . ولا حجراً . .

« سئل الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عنه ذات يوم :

كيف رأيت ربك . . ؟؟

فأجاب :

« نور ، أنّى أراه » . .

أجل . . هو نور السموات والأرض . . هو قوة عالية ، عادلة ،

تملأ الـكون ، وتنبثُّ فى الـكائنات جميعاً ، انبثاثاً عظيماً مسيطراً . .

وإنا لنـكاد نراه فى أنفسنا .. فى الشمس .. فى مياه النهر . . فى النبات الأخضر .. فى اليبَس والجمد .. فى الحركة والسكون، فى السماء .. وفى الأرض ..

يسأل الرسول جارية : « أين الله » . . ؟

فتجيبه : فى السماء ..

فيرضى عن جوابها ، ويقول : إنها مؤمنة ..

ولـكنه فى موطن آخر يقول :

« إذا كان أحدكم يصلى ، فلا يبزق أمامه ، فإن الله تجاهه » ..

ويقول مرة ثالثة :

« لو ألقى أحدكم دلوه فى بئر ، لوقع على الله » . .

حتى ليـكاد يتركنا نحسب أن الله هو الحياة .. أو هو رُوح الحياة ، فهو أمامك ، وعن يمينك ..

هو فى الشمس الطالعة ، وفى الماء الجارى .. وفى الأفق المشرق . .

« ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » ..

ألم يكن محمد ببُشراه هذه .. بفهمه هــذا لله .. يطلق الضمير الإنسانى من قيود يرسُف فيها أمام قيصر يعبده .. أو صنم يذِلُّ له . . أم نار يسبِّح بحمدها . .

ألم يخرجه من دائرته المغلقة .. ويقذف به إلى الجهات الأربع .. يحلّق فى رحلة صاعدة . . . ؟ ؟ ؟

عندما يأخذنا من أمام الأصنام ، ومن بين أيدى القياصرة المعبودين ، ويقول لنا :

إذا كنتم تريدون الله ، فانطلقوا صوب الحياة . .

« أينما تولوا .. فَثَمَّ وجه الله » . . ! !

« ما يكون من نجوى ثلاثة إلا — هو — رابعهم ولا خمسة إلا — هو — سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ، ولا أكثر ، إلا — هو — معهم » . !

ماذا نفهم من هذه الآيات . . ؟ ؟

أما أنا ، فأفهم أنها تؤدى دوراً جليلا ، غاية الجلال فى تحرير الضمير الانسانى من سخرية الألوهية الزائفة التى كانت تُذِلّه وتُضلّه ، وتفسد عليه رُؤاه . .

ولنعُد إلى الحديث الذى بدأنا به حديثنا هذا . .

رأينا ، كيف أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يجىء ليشق صدور الناس ، ويتجسس على سرائرهم ، ونواياهم . .

إنه إذن يصون حرية الضمير ، ويعلن حقوقه .. ويصون حرية التفكير ، لأن التفكير عمل من أعمال السَّرِيرة .. فنحن نفكر فى أنفسنا ، ومع أنفسنا .. ولا يطّلع على تفكيرنا أحد ، إلا حين نعبر نحن عنه بأية وسيلة من وسائل التعبير . .

وحين نحمل ضمائر حرّة .. أى حين نحيا فى وجود حقيقى غير زائف ولا مبتَسر .. فإن تفكيرنا بالتالى ، يكون حراً .. ويكون سديداً .. ويكون منشئاً وعظيما .

ماذا يفسد الضمير ، ويفقده حريته وسيادته .. ؟

إنهما : الترغيب الباطل ، والترهيب الجائر ..

أى : المساومة ، والخوف ..

نفس المشكلة التى واجهت المسيح من قبل وهو يعالج مأساة الضمير .

ولسوف يُجهزُ عليها « محمد » فى إبداع ، وفى إعجاز ..

(ا) ليس بين الله ، والناس ، وسطاء ..

(ب) لأنه ليس أحد أحق بالوساطة من أحد ..

(جـ) لأنه لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا تمايز أبداً بين الناس .

(د) والامتياز الوحيد ، إنما هو للعمل الأصدق ، والأصح ، والأنفع ..

(هـ) فإذا كنت صاحب عمل صادق ، صالح ، نافع .. فيد الله فوق يدك ، من غير أن تطلبها ..

(و) وإذا لم تكن .. فليس ثمة من يمنحك جواز المرور .. لأن « جوازات المرور » كلها لدّى واحد لا يتكرر ، ولا يحابى ، ولا ينقض سنته وقوانينه .. هو : الله ..

وإذن ، فليذهب السماسرة جميعاً إلى الجحيم إن شاءوا . . . !!!

لقد انفض سامرهم وأمْحَلَت إلى الأبد ، السوق التى طالما سرقوا فيها القلوب والجيوب ..

إن محمداً يتكلم .

إنه يذيع نعى السماسرة والوسطاء .. فاسمعوا رَنينَه العذب ، وقوله الصادق :

« إذا سألت ، فاسأل الله ..

« وإذا استعنتَ ، فاستعن بالله ..

« واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك . . لم ينفعوك إلا بشيء ، كتبه الله لك ..

« ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك ، لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ..

« واعلم أن النصر ، مع الصبر » . . !!

« اعملوا ! . . .

« فكلٌ ميسّر لما خُلِقَ له » ..

ثم يُركز المسئولية فى يد الضمير :

« إن الله ، لايغير مابقوم ، حتى يغيروا مابأنفسهم »..

« من اهتدى ، فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلَّ ، فإنما يَضلُّ عليها » ..

« ولا تزرُ وازِرَةٌ ، وِزرَ أخرى » . ؟

« الحق من ربكم » ..

« فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر » .. ! !

« وإن تَدْعُ مُثقلَةٌ إلى حِمْلها لا يحمَل منه شيء ،

ولو كان ذا قربى » .. ! !

أى عظمة ، وأى صدق ، وأى خلاص من وطأة الوساطة ، والسّمسرة ؟ ؟

وأى مواجهة للضمير الإنسانى بمسئولياته ، أوضح من هـذه المواجهة .. ؟ ؟

إن أى إنسان تُثقِله أخطاؤه وذنوبه .. ثم يدعو من يساعده فى وَضع حمله الذى يُبهظُه .. لن يجد المجيب . . !

« ولو كان ذَا قُرْبَى » .. ! !

أنت وحدك ، عون نفسك .

فتقدم .

كن خَيِّراً ، إن شئت . . أو شريراً ! !

كُن صالحًا ، إن أردت .. أو فاسداً .

الحمل حملك .. والمسئولية مسئوليتك .. والمصير مصيرك .

وهذا أرقى ما يمكن أن يحرَّر به الضمير .

فهو إذ يُعطَى وثيقة حريته .. يعطَى معها وفى نفس الوقت ، زمام مسئوليته .. ! !

إن « المسئولية الشخصية » تتسع هنا ، لتشكل وجوداً جديداً ، يمارس فيه الضمير البشرى حريته ممارسة ناشطة ، ممتلئة ، فعّالة .

« لا تكسب كل نفس إلا عليها » ..

« من جاهد ، فإنما يجاهد لنفسه » ..

« لا تُسْألون عما أجرمنا .. ولا نُسْأل عما تعملون »

« لا يملك بعضكم لبعض نفعا ، ولا ضرًّا » ! !

* * *

والآن ، فمع محمد ، مرّة أخرى ، بل مرات ، بل دوما .. لنبصره فى جلاله ، وهو يحرر الإنسان ، ويحرر الحياة .

لقد رأيناه وهو يجهز على المساومة ، وعلى الوساطة التى تجعل الضمير الإنسانى تابعاً ، وسلعة .

والآن نراه وهو يحرّره من الخوف .

إن شرّ ألوان الخوف ، هو : الخوف من أنفسنا .

إنك قد تخاف « شَبحاً » . ولكن خوفك سينتهى باكتشاف حقيقته .

وقد تخاف « ظالما » ولكن خوفك سينتهى بانتهاء ظلمه .

وقد تخاف فقراً ، أو مرضاً ، أو كرباً ولكن خوفك سينتهى

بمجاوزة الفقر إلى الغنى ، والمرض إلى العافية ، والسكرب إلى الفرَج .

أما حين تخاف نفسك .. فإنك تصاب بشرّ ما يمزقك .. ؟

لماذا .. ؟ ؟ ؟

لأن نفسك لا تفارقك أبدا ، ولو غادرت الأرض كلها إلى السماء ، وإذن فستظل مخاوفك معك ، تحيط بك ، وتُمْـلى لك ، وتفقدك سكينة نفسك ، وتُتَبِّر وجودك تتبيرا .. !

وخوف النفس ، ينميه الفهم المغلوط لطبيعتها ، والمبالغة فى تجسيم أخطائها ..

عندئذ يلفح الضمير نوع ردىء قاس من الشعور الحاد بالإثم ، يشطر الذات الواحدة شطرين ، ويقسمها إلى معسكرين . ؟

ويشعل فى الشخص الواحد المنقسم على ذاته «حربا أهلية» مضنية .. !

وفى هذا ، يتقدم الرسول ليتابع القيام بواجبه تجاه تحرير الضمير .

إنه لا يتغاضى عن الذنوب ، إذا كانت جرائم « طَبَقة » . أو جرائم « سُلطة » ..

ونعنى بجرائم « الطبقة » ، تلك التى تشكل مقاومةً لمصالح الجماعة ، وحقوقها ، وتقدمها ..

ونعنى بجرائم « السلطة » ، تلك التى تُستَغل فيها الوظيفة ، أو المركز ، فى انتهاب مال ، أو إهدار حق ..

أما تلك التى يفرزها الضعف الإنسانى ، فى نطاق فردى : فهو بها جدُّ رحيم .. !

وكما قال المسيح من قبل : « من كان بلا خطيئة ، فليرم بحجر » .
يقول محمد : « كل بنى آدم خطّاء » ..

وإنه ليضع أخطاءنا الأخلاقية فى مكانها الطبيعى ، بوصفها « إفرازاً » يكاد يكون حتميا ، لوجودنا ، ولطبيعتنا . . فيقول :

« والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ،
ولجاء بآخرين يذنبون ، فيستغفرون ، فيغفر لهم » ؟

إن الرسول ، لا يحرض بهذا على الخطأ ، والرذيلة . .

وإنما يشير إلى قانون هام من قوانين حياتنا .. ذلكم ، هو « قانون التجربة ، والخطأ » .

إن الذنب هنا يعنى : الخطأ ..

والاستغفار ، يعنى : التجربة . .

لأنه — أعنى الاستغفار — يمثل الموقف الذى نحاول فيه استرداد أنفسنا ، وفطامها عن الخطأ الذى كانت تقارفه . .

وهذه ، تجربة . .

ذلك أن التجربة ، ليست هى الحادثة التى تحدث لنا . .

بل هى ، موقفنا من الحادثة نفسها . .

ويبثّ الرسول فى الضمير مزيداً من الطمأنينة ، فيضرب هذا المثل :

ذات يوم ، وهو يسير مع أصحابه ، يبصر على الطريق أمًّا تضم

طفلها فى شغف كبير ، وفى حنان أكيد . . فيقف متأملا ، ثم يسأل أصحابه :

— « أترون هذه الأم ، طارحة ولدها فى النار » .؟!

ويجيب أصحابه رضى الله عنهم :

« أبداً ، يا رسول الله » . .

فيعقب الرسول ، قائلا :

« والذى نفس محمد بيده . .

« للهُ أرحم بعبده المؤمن ، من هذه بولدها » ! !

ويتلو محمد آيات ربه فى هذا المقام .

وإذا كان الشعور الحادّ بالذنب يعزلنا عن أنفسنا ، ويسبب خوفنا منها ، ويضعف ثقتنا بها .

وإذا كان الرسول ، قد أبعد عنا وطأة هذا الشعور ، حين ضَاءل من خطورة ذنوبنا وأخطائنا . .

فإنه أيضاً ، فى نفس اللحظة . . ولنفس السبب ، قد كرّه إلينا الخطايا ، وحذرنا من ارتكابها . .

فليس من المعقول أن يُعنى بتطهير المصَب ويغفل أمر المَنابع .

وإذن ، فهو حين يدعونا إلى الفضائل ، وحين ينهانا عن الرذائل . بل وحين يُلح أحيانا فى دعوته هذه . فإنه لا يعنى التحكم فى الضمير ، إنما يريد أن يبتعد به عن دواعى الخوف وأسبابه .

ويريد له أن يحتفظ دوما بأمنه وسلامه .

« فالذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

« ومن يعمل سوءاً ، أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » . .

بل إنه ليذهب فى إفساح آماد الأمل والرحمة مذهباً بعيداً ، باراً . .

فيدعو صاحبه « أبا هريرة » ذات يوم ، ويقول له : يا أبا هريرة ، اذهب ، وبشر كل من يلقاك بالجنة . .

ويبتهج « أبو هريرة » لهذه المهمة الطيبة التى ستنزله فى قلوب الناس منزلا مباركا ، إذ يبشرهم بأعظم بشرى ينتظرونها . .

ويمضى مهرولا . . يبشر كل من يلقاه بالجنة .

ويلمح . . « عمر بن الخطاب » قادما ، فيجرى نحوه سعيداً بالجميل الذى سيسديه إليه ، فيبرح به قلبه . . !

ويلقاه ، ويعانقه ، ويصيح :

يا عمر . . أبشر بالجنة . .

— الجنة . . ؟ ؟ ومن أنبأك هذا . . ؟ ؟ !

أنبأنى رسول الله يا عمر .. قال لى : اذهب وبشر كل من يلقاك بالجنة . . .

ويظن عمر أن أبا هريرة قد أصابه شيء .. ، فيأخذ بتلابيبه

فى صرامة ، ويقوده أمامه إلى رسول الله ، ليستجلى الخبر ..

وبين يدى الرسول ، يتأكد عمر من صدق صاحبه .. ولكنه يشير على الرسول ألا يفعل .. حتى لا يتكل الناس على عفو الله ، فيتركوا العمل ، ويتقاعسوا عن الخير .

* * *

بعد هذا ، يجىء دور الآفة الثانية من آفات الضمير .

وهى حرمانه حقه فى المناقشة ، والمعارضة ، ووضعه تحت وصاية غبية من التقاليد البالية ، ومن سدنتها ، وحماتها .

وللرسول مع هذه ، جولة موفقة ..

وبمجرد ظهوره ، كرسول ، كان « نعيا » لها ، وقضاء أكيداً عليها . .

فلقد كان عمله ، المناقشة ، والمعارضة .. وتسريح أولئك الذين يزعمون لأنفسهم من دون الناس ، حق التوجيه والوصاية .

إنه يحدث الناس عن ربه :

« سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » ..

ويطوف بهم بين آيات الكون وعجائبه ، ثم يقول :

« إن فى ذلك لآيات للعالمين » ..

« إن فى ذلك لآيات ، لقوم يعقلون » ..

ويسلك مع الناس سلوكا ، من شأنه أن يغرى الضمير الإنسانى بالمناقشة ، وبالمعارضة .

يقول له « أعرابى » : يا محمـــد : أعطنى ، فليس المـال مالك ، ولا مال أبيك ..

ويهرع إليه عمر غاضباً ، يريد أن يطرحه أرضاً ، أو يجهز عليه .. فيرده الرسول فى ابتسامة عذبة ، ويقول :

« دعه يا عمر ..

« إن لصاحب الحق مقالاً » .. ! !

وهو — عليه السلام — يلوم السلبيين ، الذين لا يواجهون الخطأ بالتقويم ، وينهى الناس عن أن يكونوا كذلك :

« لا يكونَنَّ أحدكم إمَّعة ..

« يقول : إذا أحسن الناس ، أحسنت . . وإن أساءوا ، أسأت » ..

« ولـكن ، ليوطن أحدكم نفسه ، إذا أحسن الناس ، أن يُحسن.. وإذا أساءوا ، أن يتجنَّب إساءتهم »..!!

وإنه ليدمدم على التقاليد التى انتهى دورها ، ثم لا تزال تتلكأ ، وتتشبث بالبقاء .. ويعزلها عن الضمير الإنسانى ليباشر دوره مع الحركة الجديدة للتاريخ .

ويسخر من الذين يقولون كلما دعوا إلى التقدم : « إنا وجدنا آباءنا على أمَّة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

ويرثى لمصير الذين لن ينالوا صداقته يوم يقوم الناس لرب العالمين . لأنهم « كانوا يرجعون بعده القهقرى » !!

ويقول مبارِكا نهج الحياة فى التغير والتطور ، وهاتفاً بنا ، كى نسارع دوما إلى نداء التجديد القويم الصالح :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة . من يجدِّد لها دينها » ..

ولقد دمَّر الوصاية على الضمير الإنسانى ، حين أعطاه حُريته ، وحَمَّله مسئولياته على النحو الذى رأيناه من قبل . كما اعترف بحقه فى الخلْق ، والابتكار ، والتصرف ، حين قال للناس : « أنتم أعلم بشئون دنيا كم » ..!

* * *

أما موقفه من ثالثة الأوثان التى كان الضمير يترنح منها ، وهى : العنصرية .. فما أروعه وهو ينقض بناءها حجراً ، من بعد حجر . . ! !

لقد عرف — جيداً — المنزلة التى بَوّأه الله إياها .. ووضعه فيها . . إنه نذير يخرج فى قومه ، وبشير .

وقومه — وهنا تأخذ كلمة « القومية » أصدق مفاهيمها ، وأحقها بالإكبار والإجلال — . .

قومه ، هم العالم . . دون أن ينقص ذلك من ولائك لوطنك وعشيرتك

أجل ، هو رسول الله إلى العالم ليهديه بالحكمة والموعظة الحسنة . .

العالم كله . . حاضره ، وغائبه . . قريبه ، وبعيده . . صالحه ، وزائغه !

« إنى رسول الله إلى الناس كافة » .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ..

وحين يسأل عن أفضل الأعمال ، يجيب وما أبهره من جواب :

« أفضل الأعمال ، بذل السلام للعالم » . ؟

بذل السلام للعالم . . . ؟؟؟

لكأنه يقولها اليوم .. ولكأنه تخرج الآن من بين شفتيه الودودتين غضّةً ، رطبة ، حانية ، دافئةً ، هاديةً ، جليلةً . . . !!!

أنى يكون للعنصرية — إذن — فى دعوته مكان .. ؟ ؟

إن العنصرية ، أنانية جشمة مظلمة ، ولقد عاش الضمير الإنسانى فى حمأتها حتى كاد يفقد ذاته .. وكل تحرير له منها ، يمثل تحريراً باهراً للإنسانية كلها ، إلى الأبد .

من أجل هذا ، أمره ربه أن يقول :

« يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ..
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . .

أى لتكون غايتكم ، التعارف ، والتآخى . . !

وفى التطبيق العملى لهذه الدعوة الجليلة ، يمضى محمد كالضوء .

فـ « سلمان » الفارسى .. يأخذ مكانه إلى جوار « أبى بكر » و « عمر » القرشيين .. !

و « بلال » الحبشى ، يكون مكانه فى السلم الاجتماعى ، ذورته وأعلاه .

بينما « أبو جهل » الزعيم القرشي ، يهوى فى تقدير الرسالة إلى حضيض ليس له قرار .. !

ذلك أن العمل الصادق من أجل تقدم هذا « العالم » وسلامه . . هو الميزان الذى يحدد أقدار الناس .

وبلال الحبشي .. كان من العاملين الصادقين .. لأن الدعوة التى سار تحت لوائها ، كانت تقدماً بالحياة ، وبالزمن ، وبالناس إلى الأمام . .

كانت تأخذهم من معاطن الركود ، والبلى ، والجهل ، إلى حياة جديدة حافلة بالحركة ، وبالتطلع ..

أما أبو جهل ؛ فكان من أقطاب الرجعية ، والوقوف .. لهذا أخذ مكانه فى أدنى السلم حتى دفعه الزحام أخيراً إلى التراب .. !

أليست رائعة ، وعظيمة .. وقفة هذا الإنسان الكبير ، فى قرية متواضعة هى « المدينة » .. منذ ألف وأربعمائة عام .. يمزق راية المنصرية . ويسوق القافلة إلى إخاء رحيب ، ويتحدث عن « بذل السلام للعالم » . . ؟ ؟ ! !

أجل . إنها لكذلك .. سيما حين نرى فى زماننا هذا ، ذى المدنية الباذخة ، والحضارة الشامخة ، دُوَلا ، وشعوبا تنادى بالعنصرية ، وتقيم لها الصرح .. !

إن حاجتنا لأكيدة ، ومستمرة . لتلاوة الإعلان الذى أذاع

به « محمد والمسيح » ، حقوق الضمير الإنسانى ، وخلصاه به من أصفاده التى كان يعانيها ، ويقاسيها .

ولم يكن ثمة أى اعتبار لدى محمد ، للفوارق التى تستطيع إذا أهمل حطامها ، أن تخلق طبقة باغية ، أو عنصرية مستعلية ..

لا اللون ، ولا الجنس ، ولا الثروة ، بل ولا الدين ..

لا شىء من هذه جميعاً يأذن له الرسول بأن يفرّق بين الإنسان ، والإنسان .

ومن جهة اللون ، والجنس ، والثروة ، يقول فيما يقول . .

« كلكم سواسية كأسنان المشط » ..

ومن جهة الدين ، يقول عن ربه ..

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك .. وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى .. أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » ..

ويقول :

« الأنبياء إخوة . أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد » . .

وهو ، كرسول للإسلام ، يعامِل أهل الكتاب معاملة الأخ والندّ .. ما لم تحمله ضرورات حرب على سلوك آخر طارىء ، لا يلبث أن يزول بزوال تلك الضرورات ..

لم تـكن لدعوة « محمد » عليه الصلاة والسلام حدود إقليمية . .
ولم تأخذ أبداً طابع التعصب ، ولا العنصرية . .

انظروا . . .

حين قدِم المدينة ، وجد اليهود يصومون يوم « عاشوراء » . .

فسألهم : لماذا تصومونه . . ؟؟

فأجابوه : إنه يوم عظيم .. أنجى الله فيه موسى ومن معه .. فصامه شكراً لله .. ونحن لهذا نصومه .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« نحن أحق وأولى بموسى منكم » . .

وصام « عاشوراء » .. وأمر المسلمين بصيامه . . ! !

هذا رسول « إنسانىّ » الرؤى .. « عالمىّ » النهج .

ومن ثمَّ ، لم يكن للعنصرية فى حياته ، ولا فى دعوته مكان .

* * *

هكذا حرّر « محمد » ، كما حرّر « المسيح » الضمير البشرى من الأخطبوط الذى كان يحتبسهُ ، ويمحقه ، والذى أفضنا فى الحديث عنه ، وفى الحديث عن الإجراءات التى اتخذها ضدّه ، الرسولان الكريمان . . ! !

ونود أن نذكِّر بما قلناه من قبل .

أن الضمير الإنسانى ، كما نعنيه هنا .

هو « الإنسان فى وجوده الحقيقى » .

وأوّل مظاهر هذا الوجود الحق للإنسان ، هو . . الفكر .

وكل دفاع عن حرية الضمير ، وحقوقه .. هو دفاع عن حرية الفكر ، وحقوقه .

ومن شاء . . فليعد تلاوة النصوص التى سلفت كلها . . فسيبصر أنها مباشِرَة فى حماية الفكر ، مثلما هى مُباشرة فى حماية الضمير .

إن « التفكير » عملية ذهنية . . نُزَاولها جميعاً بأسلوب تلقائى حتمى. لا نتكلفه . ولسنا على دفعه بقادرين .

كل فرد يفكر فى شئونه ، ومشاكله ، وشواغله ، ورُؤى نفسه .

وكل فرد يعبّر عن ذات نفسه بالطريقة التى يستطيعها .

ويتعرقل تفكيرنا .. وينافق تعبيرنا ، حين تُصيبنا بعض الضغوط الكابحة .

هذه الضغوط التى ترتكب بتقحمها حِمَى الفكر .. جريمة . . « إرهاب الضمير » .

وإرهاب الضمير ، أشَدُّ قساوة ، وأكبر إفكاً ، وأيأس مصيراً من إرهاب الجسد .

ذلك أن « إرهاب الجسد » قد يَكْبِتُ التصرفات والسلوك والقول . .

ولكن الفكر يبقى بعد هذا يعمل ، ويجمع الوقود ثم يزجيه ليوم الفصل .

وليس على ظهر الأرض قوة ، تستطيع أن تمنعك عن التفكير فيما تشاء . .

ذلك أن التفكير عملية مخبوءة ، غير منظورة ، وغير مسموعة .

إنك — فى صمت — تفكر فيما تشاء . . ولا يعلم أحد عن موضوع تفكيرك وخاطرات نفسك شيئاً ، إلا حين تفتح شفتيك ، وتحرك لسانك . .

ومهما تكن الظروف التى تمسك لسانك عن كلام تريد أن تقوله . . أو تمسك سلوكك عن عمل تريد أن تمارسه ؛ ففى يوم مّا ، ستتوفّر لك لا محالة ، ظروف أخرى تمكنك من القول ومن العمل فى حرية واختيار .

لكن إرهاب الضمير شىء مختلف جداً . . فهو يسلّط على « بؤرة » الحياة فيفسدها إفساداً لا يكاد يصلحها بعد ذلك شىء .

أو هو ، يلوى زمام الضمير عن السبل الصحيحة ، إلى طرائق ، كلها حفر وعثرات . . ! !

إنك — مثلا — حين تؤمن بحق البشر فى سلام دائم ، ويمارس ضميرك دوماً تفكيراً دائباً فى هذا الحق . . ثم تقوم ظروف قاهرة ، أو قوة راهبة ، تحول بينك ، وبين الإعلان عن صوت ضميرك ، وإذاعة ما تفكر فيه . . فإن ذلك لا يضير . . إلا ريثما تتوارى تلك الظروف ، فتجد فرصتك فى التعبير عن ضميرك ، وعقلك ، وفكرتك التى أنضجتها المثابرة ، والأناة ، والصبر المفروض . . ! !

لكن حين تكون الظروف من نوع آخر فتنفذ بالإرهاب السادر ، أو بالخداع الماكر إلى ضميرك نفسه .. إلى عقلك ، وتفكيرك ، فتفسده حتى ترى السلام خرافة .. والحرب ضرورة .. فتلك هي الكارثة التي لا تكاد تؤذن بعلاج .. !!

لماذا .. ؟؟

لأن الضربة هنا ، وجهت إلى « بؤرة » الحياة نفسها .. إلى « مركز التنفس » ذاته .. إلى الجهاز العظيم الذي يصنع لنا في الحياة كل جليل من الأمور ، وكل عظيم من الأعمال ..

ذلكم هو العقل .. والضمير .

ومثل آخر ..

قد تكون إنساناً متديناً ، وتعتقد ــ خطأ ــ أن تعليم البنت حرام .. عندئذ ، ستكون مستعداً حسب درجة تدينك إلى ارتكاب أية جريمة، تمنع هذا الذي تظنه منكر ، وهو تعليم الفتاة ..

وساعتئذ ، لن تسمى جريمتك هذه ، جريمة ، ولكن ستدعوها جهاداً .. وبطولة .. وإذا انتهت بموتك ، فسترى ذلك الموت ، تضحية ، واستشهادا .

وقد تكون من الذكاء والمقدرة ، بحيث تستطيع أن تجمع حولك « قطيعاً » هائلا من المؤمنين بك ، وبقولك ..

وقد تستطيع أن تقود هذا القطيع إلى فتنة أو ثورة ، تكافحون بها « تعليم البنت » ــ مثلا ــ .. !

وسيكون السبب الـكامن وراء هذا كله « انحراف الضمير » . . ! !

ومن أين يجىء هذا الانحراف . . ؟ ؟

* يجىء من إرهاب الضمير . .

* ومن تضليله ، وحبس المعرفة عنه . .

ويتم إرهاب الضمير عن طريق التخويف الدينى .. والتخويف السياسى .. والتخويف الاجتماعى . .

وإن ضحايا الحروب الدينية .. والثورات السياسية والاجتماعية . . لتشير إلى إرهاب الضمير ، كنقطة بدء لـكل ما أصاب ، وما يصيب البشرية من عناء .

ولو أن الناس يُتركون ، ليفـكروا فى حرية ، وليبلغوا حقوقهم فى حرية ، لتوفر كثير من الدم المراق . .

ومن أجل هذا . . .

ومن أجل أن يحيا الناس فى وجود حقيقى صادق طيب .. هتف محمد وهتف المسيح بالـكثير من حقوق الفـكر ، والضمير .

ولقد حدثتكم فى بعض مؤلفاتى السابقة ، عن المدى البعيد ، والرشيد الذى ذهب إليه محمد ، فى احترامه حقوق العقل ، حتى فتح ذراعيه لحرية الشك ذاتها . .

وذلك ، حين ذهب إليه بعض أصحابه ، يَشْـكُون إليه أنفسهم ، ويبثونه مخاوفهم القاتلة من شـكوك فى الله ، تُسَاوِرُهُم . .

فإذا هو يُجيبهم متهللا :

« هل وجدتموه . . ؟؟ — يعنى الشكّ — » .

فيقولون فى أسى : نعم . .

فيجيبهم فى بشر :

« الحمد لله .. هذا مَحض الإيمان » . . . !!!

من كان يعرف مثالا ، لاحترام الضمير الإنسانى ، أروع من هذا المثال ، فليدلنا عليه . .

هذا رسول .. صاحب دعوة .. وصاحب دين . .

لُبَاب دينه ، الإيمان بالله . .

ثم يعتبر الشك سبيلا لليقين ، ووسيلة للإيمان ، بدلا من أن يعتبره جريمة ووِزْراً . . ؟؟

إنه لأمر فريد ، وعجيب . . !!

* * *

والآن .. يجىء دور سؤال هام ، علينا أن نعرضه .. وعلينا أن نواجهه فى شجاعة ، وفى بصيرة . .

وهذا ، هو السؤال :

ألم يكن السلوك الذى حدده المسيح ومحمد للناس ، وطلبا إليهم ألا يُجَاوزوه — وصاية على الضمير . . ؟؟

ألم يكن التخويف الشديد الذى بثّاه خلال وعيدهما للعصاة .. إرهاباً للضمير .. ؟؟

سؤال يجىء فى أوانه ، وفى مكانه ، بعد حديثنا المسهب عن رعاية الرسولين لحقوق الضمير الإنسانى ، وحمايتهما لمصيره .

وأجيب : لا .. لم يكن من ذلك شىء .. إذا أحسنا فهم محمد ، وفهم المسيح ..

لقد ظهر المسيح فى قوم ، كانوا يخضعون — كارهين — لوطأة « روما » وكبريائها .. ويخضعون — مخدوعين — لتعاليم الكهنة وخرافاتهم ..

ناس ، كان الضمير فيهم ملفوفاً داخل قطعة من السلم الرومانى .. المرشوش بالماء المقدس .. أو الذى كان الكهنة يسمونه مقدساً .. !!

وكانت السلطة الزمنية ، والسلطة الدينية « متفاهمتين » تماماً على موقفهما من الضمير « متفقتين » على ضرورة اضطهاده ، والتنكيل به .

السلطة الزمنية ، تضطهده بوسائلها المعروفة .. السجن .. والصلب والتعذيب .. !!

والسلطة الدينية ، ترهبه بوسائلها المعروفة كذلك .. الطرد من الهيكل .. الحرمان من البركة .. الوعيد بالنار .. !!

فماذا فعل المسيح تجاه هاتين السلطتين الضالتين ؟

أما الأولى فقد أراد أن يعزل سلطانها عن الضمير بطريقة ذكية ، فقال حكمته المأثورة :

« ما لقيصر ، لقيصر .. وما لله ، لله » . . .

واتجه صوب السلطة الدينية ، التى كانت فى معظم تصرفاتها « دثاراً » يغطى جرائم روما وسلاحاً يفتك به حكامها .. فقال لرؤساء الكهنة :

« يا أولاد الأفاعى . . يا مراءون . . أنتم كذّابون ،
ومهرّجون .. تتحدثون بالصالحات ، وأنتم
فَجَرة » . . !!

وعمد إلى أساطيرهم ، فتحداها وسخر منها . .

واستقبل الضمير الإنسانى ، القابع فى أفئدة ناس يرتجفون من الخوف ، فقال لهؤلاء : لا تخافوا . . إن أباكم السماوى قادر على حمايتكم .. وهو فيما يتعلق بحقوقه ، غفور ورحيم . .

وبمثل هذا .. قام محمد . .

قال للأشراف الذين كانوا يستضعفون الناس ، وَيَسْتَرِقُّونَهُمْ :

« ليس لابن البيضاء ، على ابن السوداء فضل . .
فارفعوا العبيد إلى جواركم » . .

فلما وضعوا أصابعهم فى آذانهم . قاد العبيدَ بنفسه ، ليأخذوا مكانهم المشروع ، بجوار السادة . .

ولما رفع السَّادَة سيوفهم .. صاح بالعبيد ، أن يدحرجوا السادة الغاصبين إلى السفح البعيد .. ويأخذوا مكانهم الذى هم به جديرون . !

واتجه صوب « الأسر الدينى » المتمثل فى الأصنام .. فألقاها على الأرض أنقاضاً وتراباً ، وقال ، وهو ينكت مصيرها :

« جاء الحق ، وزهق الباطل .. إن الباطل
كان زهوقا » ..!!

ولم يكن ذلك من المسيح ومن محمد ، إلا لحساب الضمير ، ولحساب التقدم الإنسانى أيضاً . .

وقد يصعب على بعض الناس ، تصور هذا اليوم ، لأنهم بعيدون — جداً — عن الزمان ، وعن المكان ، وعن الظروف التى تمت خلالها ، تلك الخطوات الجليلة ، الجريئة ، الفاتحة . .

وهنا ، نسأل :

أ كان يصح ، والرسولان الكريمان ، يهدمان تعاليم جامدة ، ألا يقيما مكانها نهجاً للحياة جداً . . ؟؟

بَدَاهَةً ، لا .. ولا بد إذن من منهاج .. ولقد دعا كل منهما إلى منهاجه .

وهذا المنهاج ، ثابت وباق فيما يتعلق بقيم الحياة المثلى .. من خير ، وحق ، وجمال ، وتضحية ، ومعرفة . .

ولكنه مَرِن ، ومتحرك ، وقابل للتطوير ، فيما يتعلق بسلوك الجماعة ، واحتياجاتها . .

والآن ، نسأل سؤالاً آخر :

ماذا كانت طبيعة دعوتهما . . ؟؟

أ كانت وصاية على الضمير . . ؟؟

أكانت ، وهى تدعو الناس إلى فضائل معينة تريد أن « تحَدِّد إقامة الضمير » . . ؟

أكانت ، وهى تُخَوِّف الناس من عاقبة الخروج عن الصفّ ، تريد أن ترهب الضمير . . ؟

إن تخويفاً أكيداً ، قد حدث . .

ونستطيع أن نلتقى به فى تلك الآيات الغِضَاب التى يضمها الإنجيل ، ويضمها القرآن . .

* لكن التخويف الذى لا يتحوّل إلى إرهاب ، قد يكون نافعاً . . سيما فى تلك الأزمان البعيدة . . ذلك أن الطبيعة الإنسانية ، كما تنفعل بالرجاء ، تنفعل بالخوف . .

ونحن حتى اليوم ، تعتمد قوانيننا ، ويعتمد عرْفنا الاجتماعى ، على الزواجر ، كوسيلة من وسائل التربية والتقويم .

وكما قلنا : التخويف فى حد ذاته ، وبقدر حصيف ليس ضارًّا . .

فلا بد من مخافة المرض .. حتى نُعنى بالصحة . .

ولا بد من مخافة الفوضى .. حتى نحترم النظام . .

ولا بد من مخافة الحرب .. لكى نتشبث بالسلام .

إلى الآن — على الأقل — يلعب الخوف الطبيعى هذا الدور فى تقدمنا . .

ولكن حين نسرف فى استعمال الخوف فيصير إرهاباً .. أو نسىء استعماله ؛ فلا نقدم معه الأمل والرجاء ، فإن الوضع آنئذ يختلف كثيراً .

ويتحوّل الخوف إلى جريمة ووبال .

والتخويف الذى لوّح به المسيح ، وأخوه محمد ، لم يكن مسيئاً ، لأنه لم يكن وحده .. بل كان وَسط ذُخر عظيم من الرجاء ، والأمل ، والكشف الصادق عن رحمة الله الواسعة ، وفضله السابغ . .

كما أنه لم يكن إرهاباً . .

فالمسيح ، لم يحمل سيفه ليدخل عقائده فى قلوب الناس عنوة . .

ومحمد لم يحمل سيفه ليدخل عقائده فى قلوب الناس عنوة . .

إنما حمله ، ليدافع عن نفسه وعن دينه ضدّ المعتدين . .

وليس أدلّ على هذا ، من أنه حين ظفر وانتصر ، لم يكره واحداً من الناس على الدخول فى دينه . .

ولقد رفع — عاليا — هذا المبدأ الجليل الذى أوحاه الله إليه ..

« لا إكراه فى الدين .. قد تبين الرُّشد من الغىّ » . . .

* وإذا انتفى وجود الإرهاب .. انتفى وجود الوصاية ، والحجر على الضمير . .

لقد كان لكل من الرسولين ، عقيدته ومنهاجه .. بثّ الرسولان دعوتهما فى حرارة وقوة ، ورسما للمؤمنين بهما مسلكاً وطريقاً .

ولكن ذلك كله ، لا يعنى الحجر على الضمير الإنسانى ، ولا ينبغى أن يعنى ذلك فى وعينا .

فكل إنسان حر ، فى أن يقبل عليهما ، أو يعرض عنهما . .
وهما لا يسلكان الناس فى الأغلال ، ثم يسوقانهم إلى الإيمان ، والإذعان . .

كما أنهما لا يحرمان المؤمنين بهما من حق التفكير والمحاولة . .

هذا هو المسيح يقول :

« ابحثوا عن الحق » . .

والقرآن يقول :

« سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » .

والرسول يقول :

« تفكُّر ساعة ، خير من عبادة سنة » . .

ولقد طالعنا من قبل موقفه الجليل إزاء الذين غلبهم الشك فى الله ، أو كاد .. فما عنّفهم ، ولا فتح لهم أبواب الجحيم ، بل قال لهم ، وعلى شفتيه بسمة الرضا واليقين :

« هذا صريح الإيمان » . . ! !

الفصل الخامس

معاً
من أجل الحياة

« أنا خبز الحياة » ..

كان المسيح يهدى إلى الحياة من خير ما فى نفسه ، حين قال هذه الكلمات ..

وإنها لتحمل من الطرافة ، بقدر ما تحمل من الحكمة الفنية الحافلة . . .

وإنها لتثير تساؤلا ، وعجبا ..؟!

فماذا كان يعنى المسيح بالخبز ..؟؟

أكان يعنى المذاق المادى لطيبات الحياة وهو الذى قال : « لا تطلبوا أنتم ما تأكلون ، وما تشربون » ..؟؟

ولماذا اختار هذا التركيب بالذات « خبز الحياة » ..؟

لماذا ، وهو العابد الأوّاب ، لم يقل : أنا خبز الإيمان .. أو : أنا خبز التقوى .. أو خبز الآخرة ..؟؟

لماذا آثر « الحياة » .. وقال : « أنا خبز الحياة » ..؟؟

ألا إن الجواب ليسير ..

فالحياة ، هى « الموضوع » الذى جاء المسيح ليجليه للناس ، ويشرحه ، ويلقى فيه درسه البليغ ..

هى « الأم » التى جاء المسيح ، كما جاء محمد ، وكما جاء أخوة لهم من المرسلين ، لينادوا إليها أبناءها الشاردين عنها .. وليحبوا

فى أنفس الناس .. شعائر البرّ بها ، والولاء لها ..

وإذا كانت الحياة لا يظفر بها ، ولا يحياها ، إلا أولئك الذين يكون لهم وجود حقيقى ، فقد جعل الرسولان العظيمان نصب أعينهما ، اكتشاف هذا الوجود الحقيقى للإنسان ..

ووجودنا الحقيقى ، يبدأ من أين ..؟؟

يبدأ من حيث توجد وتمارس العلاقات الصحيحة مع كل ما حولنا ..

ولقد كان اكتشاف هذه العلاقات ، أكثر ما عاش له ، وعمل فى سبيله ، محمد ، والمسيح ..

لقد كشفا للإنسان أزكى علاقاته ، بالله .. وبنفسه .. وبالعائلة البشرية كلها .. وبالكون وأسراره الحافلات ..

* أما علاقتنا بالله ، فقد ارتفعا بها فوق كل رغبة ، ورهبة .. وجعلاها حبًّا خالصاً ..

قال المسيح :

« الله محبة » ..

قال محمد :

« أفضل الأعمال ، الحب فى الله » ..

* وأما علاقتنا بأنفسنا ، فقد ركّزاها فى العمل الدائب على صقلها ، وتعليقها .

قال المسيح :

« ماذا ينفع الإنسان ، لو ربح العالم كله ، وخسر نفسه » . .

وقال القرآن المنزل على محمد :

« قد أفلح من زكَّاهَا ، وقد خاب من دَسَّاهَا » . .

* وأما علاقاتنا بالآخرين ، فالتسامح المطلق ، والتعاضد الوثيق .

قال المسيح :

« أحسنوا إلى مبغضيكم ، وَصَلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » . .

وقال محمد :

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . .

* وأما علاقتنا بالكون ، وبأسرار الطبيعة ، فهى التطلع الشغوف ، والبحث وراء المجهول .

قال المسيح :

« اقرعوا ، يفتح لكم » .

وقال القرآن الكريم :

« سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » .

عندما تتوفر لنا هذه العلاقات الرشيدة ، تتولد من تفاعلها « حركة » دائبة ، بانية ، غايتها استثمار وجودنا . .

واستثمار الوجود بما يقتضيه من حركة ، وبما ينشيء من تَبعة ، وبما يُعطى من نتيجة : هو الحياة . .

لقد أحبّ المسيح الحياة ، بقلب حَمِيم ، وعشقها بروح وَدود .

كان — كما وصف نفسه — خبز الحياة . . لأنه غذّاها بتعاليمه ، وسقى مُثلها العليا ، وَقِيَمها الباقية من رُوحه .

ومن أراد أن يبصر حبّ المسيح للحياة ، فليبصره فى الإنسان .

فقد كان الإنسان خير موضوعات الحياة عنده . .

وأحبّ وأقرب أشكال الإنسان إلى قلبه .. الطفل . .

إن « الإنسان الطفل » حبيب رُوحه ، وصفى نفسه .. لأنه خير مثال للحياة الطالعة .. الصاعدة .. البريئة .. الصادقة . . ! !

إنه يحبّ الحياة ، غضّة ، مُترعرعة ، ناضرة ، لا تأثيم فيها ، ولا مُخَاتَلة .

ومن ثمّ نجد انعكاسها هــذا على خير موضوعاتها — الإنسان الطفل — الذى يمثل الحياة الكاملة حقًّا .. حين يُحَاول .. وحين يتعثر .. وحين يشبّ وينمو . . !

لنقرأ فى الإنجيل هذا النبأ :

« .. فى تلك الساعة ، تقدم التلاميذ إلى يسوع

قائلين : فمن هو أعظم فى ملكوت السماوات . . ؟

« فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه فى وسطهم ، وقال :

الحق أقول لكم ، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل هؤلاء الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات . .

« فمن وضع نفسه مثل هذا الولد ، فهو الأعظم فى ملكوت السماوات . .

« ومن قَبِلَ ولداً واحداً مثل هذا ، فقد قَبِلَنِي ، ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى ، فخير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى ، ويغرق فى لُجَّة البحر » . . ! !

إن هذا الحَدَب العظيم على الطفولة الإنسانية ، تمثل حَدَباً أعظم على كل ما فى الحياة من خير ، وجمال ، وصدق ، وسلام ، وصعود . .

وكل من يُعثر واحدة من هذه القيم التى تزين الحياة وتنمّيها ، فقد أعثر طفلا من أطفال الله الذين يحبهم ، ويحرسهم ، ويرعاهم . .

ولأنّ الحياة عنده ، تعنى الازدهار والاستمرار ، كان كثيراً ما يشبّهها بالحقل ، ويشبّه نفسه بالزارع المثابر . .

والحياة لدَى المسيح ، هى الحياة .. خيرها ، وشرها .. حلوها ومرها .. خطأها ، وتجربتها . .

وهو يحبها جميعاً .. ويحنو عليهـا جميعاً .. حتى فى شقائها ، وفى أخطائها . .

ضرب لنفسه ذات يوم مَثلا :

« إنساناً زرع زرعاً فى حقله . . وفيما الناس

نيام ، جاءه عدوه وزرع — زوانا — فى وسط
الحنطة ، ومضى . .

« فلما طلع النبات وألقى ثماره ، ظهر الزوان
بجانب الحنطة ، فجاءه خدمه ، وقالوا له :
يا سيد ، أليس زرعا جيداً زرعت فى حقلك ،
فمن أين له هذا الزوان . . ؟؟

« قال لهم : إنسان عدو ، فعل هذا .
« قالوا له : أنذهب ، فنجمعه ؟
« قال لهم : لا ، لئلا تقلعوا الحنطة مع ـ الزوان ـ
وأنتم تجمعونه » . . . !!!

انظروا حنانه على الحياة ، وأحيائها . .
طالعوا برّه بفضائلها ، وبأخطائها . .

إن الزرع الجيد ، هم الناس الطيبون ، والزرع الردىء ، هم الناس الخطّاءون . .

وإنه ليرفض أن يقتلع الزرع الردىء رفقا بالطيب ، حتى لا يُجْتث معه ، ويذهب بَدَدا . .

ولكن ، أكان يعنى إسلام مصير الطيب للخبيث . . ؟؟

كلا ، فالمسيح لا يَدعَ الرحمة تبطل العدل ، ولا يتأتّى لبرِّه العظيم أن يعتاق سننَ الكون ، ونظام الحياة .

ومن أجل هذا ، أتمّ المثل الذى ضربه ، فقال :

« .. دعوهما ينموا .. كلاهما معاً إلى الحصاد ..

« وفى وقت الحصاد ، أقول للحاصدين : اجمعوا أولا — الزوان — واحزموه حزماً ليحرق ..

وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزنى » .. !!

ترى ، لو أمكن تحويل هذا — الزوان — إلى زرع طيب ، وحِنطة جيدة .. أيكون مصيره الحرق أيضاً .. ؟؟

بالبداهة ، لا .. وهنـــا يتم حرص المسيح على الإنسان وعلى الحياة دورته ، فيبذل جهده ليحوِّل — الزوان — إلى زرع نضير ، وقمح وفير ..

يُحَوِّل الشرّ إلى خير .. والإنسان الضالّ إلى إنسان أمين مستقيم .

« أنا ما جئت لأدْعُوَ أبراراً للتوبة ، بل خطائين ».

« ما جئت لأهلك أنفس الناس ، بل لأخَلِّص » .

* * *

ولقد أحبّ « محمد » الحياة حبًّا عزيزاً نقيًّا ، وكان لها صديقاً ، أىّ صديقٍ .. !!

أحبها فى كل مظاهرها ، ونَبضها ..

فإذا هطل المطر ، سارع إليه كاشفاً عن صدره ، ليتلقّى رذَاذَه الندىّ الرطيب وليس بينهما حجاب ..

وإذا بزغ الهلال ، استقبله فى إخبات وحفاوة ، وناجاه قائلا :

« ربى وربك الله » . .

ويسير بين الحقول — وما كان أندرها فى بلده — فإذا وقعت عيناه على براعم تتفتح ، دنا منها ، ومسها بيد حانية ، ثم انحنى عليها ، ولثمها بفم شكور ، وغمرها بفيض من مودته وصداقته ، ثم همس إليها قائلا :

« عام خير وبركة ، إن شاء الله » . . !!

وإذا طلعت الشمس استقبلها داعياً مبتهلا .. وحين تغرب ، فلها منه تحية الوداع . .

ولكأنما سارع الله إلى هواه ، وشاء أن يزكى صداقته الحميمة للكون ، وللحياة ، فأقسم فى قرآنه الكريم بـ « الليل ، إذا يغشى . . والنهار ، إذا تجلى .. » وأقسم بـ « الشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جَلاّها » . .

لقد احترم الرسول صلى الله عليه وسلم الحياة فى كل حىّ . . فى الإنسان .. والحيوان .. والطير ..

فى الأبيض .. والأسود .. والأصفر ..

فى عظمتها .. وفى بؤسها ..

مرت به ذات يوم جنازة ، فوقف لها فى خشوع .. حتى إذا جاوزته قال له أصحابه : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودى .. فأجابهم :

« سبحان الله . . !! أليست نفساً » . . ؟؟!!

ولم يَطِقْ أن يرى الحياة تتعذب فى « هِرّة » فقال محذراً :

« دخلت امرأة النار فى هِرّة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها » . .

بل أراد أن يملأ الأفئدة بتقديس الحياة ، حتى لا يبقى فيها مكان — أى مكان — لامتهانها .. وساق هذه القصة القصيرة ، والمثيرة :

« بينما بَغِىّ تسير ذات يوم ، إذ رأت كلباً يلهث من العطش ، فخلعَت مُوقها — أى نعلها — وَأَدْلَتْه بحبل فى بئر ، وملأته ماء ، وسقت الكلب ؛ فشكر الله لها ، وأدخلها الجنة » . . !!

وَحُبّه للحياة ، جعله يرفض أن يحياها مترفاً ، لأن الترف يذهب ببهجة معاناتها ..

« نحنُ قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا ، لا نشبع » ..

ورفض أن يحياها متجبّراً ، لأن التجبُّر افتيات على قداستها ..

« إنما أنا بشر مثلُكم » ..

ورفض أن يعزله الجهل عن حقائقها ..

« رب زدنى علماً » ..

« اطلبوا العلم ولو فى الصين » ..

ولم يحدث قط أن تحدث القرآن عن الحياة حديث استخفاف وتحذير إلا وهى مقرونة بكلمة « دنيا » ..

« الحياة الدنيا ، لعب ولهو » ..

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ..

« وأترفناهم فى الحياة الدنيا » ..

وقال عن الذين يعيشون كالأنعام ، لا دور لهم فى الحياة ..

« إن هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا » ..

فالحياة المقرونة بهذا الوصف ..

الحياة « الدنيا » ..

الحياة الصغيرة الضئيلة ، التى لا تحليق لها ، ولا تبريز فيها ، هى التى يذكرها القرآن دوماً فى مجال الاستخفاف ..

أما الحياة العظمية ..

الحياة الصالحة ، فالمسيح خبزها .. ومحمد صديقها ..

* * *

قلت : إن علاقاتنا السديدة بالله .. وبأنفسنا .. وبالعالم .. وبالكون جميعه .. تمكّننا من استثمار وجودنا ..

وقلت : إن استثمار الوجود يعنى أننا نمارس الحياة ..

وأقول : إننا على أبواب هذه الممارسة نلتقى بعلاقات أخرى تربطنا بالحياة ، وتشدنا إليها ..

وكلما كانت هذه العلاقات صافية ، صادقة ، جادة .. كانت الحياة بالنسبة لنا فرصة عظيمة مباركة ..

أما إذا اعتور هذه الملاقات الزيف ، والانحراف ، والكذب ، فإن الحياة — حياتنا — تفقد جمالها ، وقيمتها ..

وقد نستطيع أن نتصور هذه الملاقات فى :

* الحب . . .

* الصدق . . .

* العمل . . .

كل أشياء الحياة ، بينها مودّة وإلاف .. حتى الخير والشر اللذين يبدوان لنا نقيضين لا يتفقان ، وضِدّين لا يجتمعان .. يسرى بينهم « شِرْيان » خفيّ من التجاذب والتعاون .. وكثير ما تعمَى السُّبل على الخير ، فيتقدم الشر ويفتح أمامه الطريق . . !

والأرض ، وما حولها من كواكب ، تألف الشمس ، وتحبها ، وتنجذب نحوها ..

ونحن ننجذب إلى الأرض فى حنان ، واضطرار ..

وهكذا ، فالحب الذى نسميه « جاذبية » ليس مجرد فضيلة ، ولا مجرد عاطفة .. إنما هو « قانون » يحفظ لأصحابه الوجود ، والبقاء ..

وسكان هذا الكوكب — نحن البشر — فى حاجة أكيدة ، لإدراك هذه الحقيقة إدراكاً سديداً ..

وبالأمس .. الأمس البعيد ، الذى أرسل فيه محمد ، والمسيح ، كنا أشد حاجة لهذا الإدراك ..

فغرائزنا التى خرجنا بها من الغابة . . ونظمُنا الملأى بالتناقضات . .

كثيراً ما تجعل منا خصوماً وأعداء ، والحب منتصر حتماً آخر الأمر ، لأنه كما أسلفنا ، ليس عاطفة ، بل « قانوناً » .. بيد أن ذلك لا يعنى السكوت عن دعوة الناس إلى ممارسة هذا القانون ، وإحياء شعائره ، والتزام جادَّته ..

ولقد جاء الرسولان الكريمان لينادياا الخليقة إليه .. إلى الحب ، والإخاء ..

وأروع ما فى دعوتهما للحب من شواهد ، هو إسقاطهما ذنوب المتحابين فى الله ، وجعلهما « الحب » رحمة واسعة ، تذوب فى دفئها ، الخطايا والآثام .

فالمسيح وهو يفسر سبب المغفرة الشاملة التى بَشَّرَ بها الخاطئة ، يقول :

« لقد أحبّت كثيراً ، فغَفر لها كثيراً » .. !!

ومحمـــد ...

يُساق إليه ذات يوم رجل من المسلمين ، كان قد اعتاد احتساء الخمر .

ولم يكد أصحاب الرسول الجالسون معه يبصرون الرجل قادماً ، يُمسِك بعض الصحابة بتلابيبه ، حتى قالوا فى ازدراء وضجر : « لعنه الله ، ما أكثر ما يُؤتى به شارباً » .. !!

ولـكن الرسول لا يستريح لما يسمع منهم ، فيقول لهم فى اهتمام :

« لا تلعنوه ، فإنه يحب الله ورسوله » .. !!

وهكذا ، يقيم المسيح والرسول ، المعيار الحق لفضيلة الإنسان — أى إنسان — وهذا المعيار ، هو .. الحب ..

وحب الله ورسوله هنا ، يمثل مجالا أرحب مما قد يتبادر إلى أفهامنا .

إن حب الله ، يعنى حب آثار رحمته جميعاً من بشر ، وشجر وحجر .

يعنى حب الحياة كلها ، والإنسانية التى هى زينتها ، ولبابها .

لقد غفر المسيح للخاطئة ، لأنها كانت تتصل بالحياة العظيمة عن طريق علاقة من أوثق علاقاتها ، وهى المحبّة . .

ورفض محمد ، أن يُلْعن رجل سكير ، لأنه كان يرعى فى فؤاده نفس العلاقة .

وفى الوقت الذى تكون علاقتنا بالحياة قائمة ، وصادقة ، فإن أخطاء السلوك ، تفقد ضراوتها وقيمتها ، ما دامت لا تأخذ طابع التحدى والإصرار . .

والحب — كما قلنا — أوثق علاقاتنا بالحياة .

ولقد يأخذ فى مصطلحاتنا أسماء شتّى ، فتارة نسميه الرحمة ، وأخرى نسميه الأخاء ، أو التعاون ، أو البر . .

ولكن اسمه الحق سيظل كما هو .. الحب ..

وسيظل « أباً » لكافة العلاقات ، والقيم التى تربطنا بالحياة وتجذبنا نحوها .

وتكفير الخطايا بالحب ، على النحو الذى رأيناه الآن من الرسولين الكريمين يشير إلى تفسير جديد للخطيئة وللذنب . .

فأفعالنا التى توصف بأنها خطايا ، إنما حملت هذا الوصف ، لأنها تثبط ولاءنا للحياة ، وتؤذى علاقتنا بها . .

وتكون أفعالنا شرِّيرة ، لا بقدر ما تحمل من شَرّ ، فليس للشرّ وجود ذاتى .. بل بقدر ما تعزلنا عن العلاقات الرشيدة الصحيحة الفاضلة التى تربطنا بالحياة ، وتربط الحياة بنا . .

لذلك صوّرا فرحهما العظيم ، بل وَفَرَح الله من قبل ، بالإنسان التائب .. أى الإنسان الذى يعود إلى تصحيح موقفه من تلك العلاقات، التى تصله بالحياة ، ويعيش بسببها حيًّا ، وكريمًا . . ! !

ضرب المسيح لهذا مثلا :

« .. ابناً أخذ المال الذى أعطاه له أبوه ، وسافر إلى كورة بعيدة ، وهناك بذر ماله . . فلما أنفق كل شىء : حدث جوع شديد وبدأ يحتاج ، واشتغل أجيراً لواحد من الناس ، يرعى له خنازيره . .

« وكان يشتهى أن يملأ بطنه من الخرنوب الذى كانت الخنازير تأكله ، فلم يعطه أحد . .

« فرجع إلى نفسه ، وقال : كم أجير عند أبى يفضل عنه الخبز ، وأنا أهلك جوعاً .. أقوم وأذهب إلى أبى ، وأقول له : يا أبى ، أخطأت ولستُ مستحقًّا أن أدْعى لك ابناً ، اجعلنى كأحد أجرَائك . .

« وقام ، وجاء إلى أبيه . .

« وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه ، فتحنّنَ
وركض ، وأسرع إليه وقبّله ، وقال لعبيده :
« اخرجوا الحُلّة ، وألبسوه ، واجعلوا خاتماً فى يده ،
وحذاء فى رجليه ، واذبحوا العجل المسمّن وأطعموا
الناس ، ونادى قائلا :
« لنفرح ، ونُسرّ ؛ لأن ابنى هذا كان مَيِّتاً ،
فعاش ، وكان ضالاً ، فوُجد » . .

بعد أن ينتهى المسيح من ضرب هذا المثل يدير بصره الودود على الوجوه المصغية إليه ، ويقول :

« هكذا الله .. أبوكم السماوى .. يشتاق أن يرى
أبناءه البشر يعودون إليه تائبين » . . !!

وضرب الرسول مثلا :

« للهُ أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ،
من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة . .
فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه .. فأيِسَ
منها .. فأتى شجرة ، فاضطجع فى ظلها ،
قد أيس من راحلته . .
« فبينما هو كذلك ، إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ
بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت (عبدى)
وأنا (ربك) . . أخطأ من شدة الفرح » . .

ويأخذ الرسولان الكريمان قلوبنا إلى الحب أخذاً وثيقاً ، بما يتركان لنا من قدوة تتمثل فى سلوك صادق وعظيم .

فالمسيح فى إحدى أمسياته الأخيرة على الأرض ، يقوم عن طعام العشاء ، ويأخذ « منشفة » ويتزر بها ، ثم يصب الماء فى آنية ، ويدعو تلامذته ، فيغسل لهم أقدامهم واحداً ، واحداً ، ثم يجففها بالمنشفة التى معه ..

ويغشى تلامذته الحياء والفزع ، ويحاولون منع المسيح ، لكنه يواصل عمله العظيم ، وهو يقول لهم :

« الآن تعلمون تفسيره » ..

وبعد أن ينجز غسل أقدامهم وتجفيفها ، يقول :

« أنتم تدعوننى معلماً ، وسيداً .. وحسناً تقولون ؛ لأنى كذلك ..

« فإن كنتُ ، وأنا السيد المعلّم ، قد غسلتُ أرجلكم .. فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض » .. !!

ويُخصب محمد واحة المحبة بكل عاطفة ريّانة طيبة ، فيوصى الناس قائلا :

« إذا أحب أحدكم أخاه ، فليخبره أنه يحبه » ..

« وإذا آخى الرجلُ الرجلَ ، فليسأله عن اسمه ، واسم أبيه ، وممّن هو .. فإنه أوصل للمودّة » ..

ويقول :

« يقول الله عز وجل : المتحابون لجلالى ، لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون ، والشهداء » ...

« إن من عباد الله أناساً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة ؛ لمكانهم من الله تعالى . . !

« قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم . . ؟

« قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها .. فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .. وقرأ هذه الآية ..

« — ألا إن أولياء الله لا خَوْف عليهم ولا هم يَحْزَنون — » . . ! !

إن الرسول يرفع الحب فوق مستوى المنفعة والغرض .. فيقول :
« تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يعاطونها » .

وهو أيضاً يقرر أن الحب يغطى ضعفنا ، ويرفعنا إلى كل مكانة عالية ، عجزت أعمالنا عن أن تصعد بنا إليها .. وذلك حين يسأله « أبو ذر » :

يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم ؟

فيجيبه الرسول :

« المرء مع من أحَبّ » . .

إن الحب هو الزاد الذى يردُّ عن البشرية سَغَبها المضنى ، وهو الرِّىّ الذى يدفع عنها ظمأها القاتل .

وهى لا تستطيع أن تحيا ما لم تحب ؛ لأن الحب هو الآصرة العظيمة التى تجمعها بالحياة ، وتمنحها الجناحين اللذين تحلق بهما وتطير .

* * *

والصدق . . .

إنه العلاقة الثانية التى ترتبط بها مع الحياة ..

ومكان الصدق من الحب ، جد قريب ..

فنحن نكذب حين نخاف ..

نكذب على الناس حين نخافهم .. ونكذب على القانون ، حين نخافه .. بل نكذب على أنفسنا ونخدعها ، حين نخافها . .

ومع الحب ، لا يوجد خوف .. وإذن ، لا يُوجَد كذب . . !

والصدق هنا ، أبعد مدًى ، وأرحب مفهوماً من مجرد الإخبار بالواقع . .

أعنى ، ليس هو قول الحق وحسب .. بل هو أن نعيش الحقّ نفسه.

هذا ، هو الصدق ، كعلاقة تربطنا بالحياة ، وهو يعنى تحرير أنفسنا من كل ما يجعلها تحيا حياة زائفة مزوَّرة .

يعنى أن يشتملنا تطابق واضح ، بين ظاهرنا وباطننا .. بين حياتنا الباطنة ، وحياتنا الظاهرة .

ويعنى أن نكون قَوّامِين بالقسط ، ولو على أنفسنا ..

ويعنى أيضاً ، بذل أقصى الجهد فى كل عمل نعمله ، وفى كل موقف نتخذه . .

ولقد علّمنا هذا محمد ، والمسيح . .

لقد شَنّا على الرياء هجوماً عنيفاً .. وأخبر الرسول أن « ذا الوجهين ، يُدْعى عند الله كذاباً » .

فالرياء كذب .. والكذب تزييف لعلاقة ثمينة من علاقات الحياة ، وَقِيَمِها ، وهى الصدق .

من أجل هذا ، كان الرسولان يحتفيان بكل مخطىء يتقدم ، وفى يده وثيقة إدانته .

هذا الذى يسميه عصرنا الحديث ، بـ « النقد الذاتى » . .

ولطالما ضرب الله برسوله المَثل ، واصطنع منه القدوة . .

فإذا أخطأ — مثلا — مع إنسان ضرير .. ولو بحسن نية ، وقف فى محراب الصلاة ، والناس من ورائه صفوفاً ينصتون له ، وهو يتلو عليهم وثيقة اعترافه ، وَأَوْبَته :

« عَبَسَ وتولّى ، أن جاءه الأعمى ، وما يُدْرِيكَ
لعله يَزَّكَّى ، أو يذكَّرُ فتنفعه الذكرى ، أما من

استغنى ، فأنت له تصدّى ، وما عليك ألا يزكى ،
وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه
تلهّى ..؟ كلا » ..!!

وإنه ليخدش أعرابيًّا ذات مرة ، دون عمد ، فيصرُّ على أن يخدشه الأعرابى مثلها ..!!

ويقف فوق المنبر فى جلال عظيم ، ليقول لأصحابه الذين يستمعون له :

« من كنت جلدت له ظهراً ، فهذا ظهرى ؛
فلْيَقْتَدْ منه .. ومن كنتُ أخذت من ماله شيئًا
فهذا مالى فليأخذ منه » ..!!

إنه لم يجلد فى حياته ظهراً ، ولم يؤلم لأحد ظفْراً .. ولكنه الصدق المطلق مع الحياة ، يُمارسه الرسول فى أنقى صُوَره ، وأوفاها بالذمّة والطُّهر ..

وإذا كانت حياته لم تتلفّع قط برياء أو ضعف ، فهى كذلك لم تتلفّع قط بغرور ، ولا بصَلَف ..

لقد كان يسابق زوجته ، ويخَصّف نعله بيده ، ويرقع ثوبه بنفسه .

ولقد حلب شاته .. وخدم أهله .. وحمل الطوب مع أصحابه فى بناء مسجده .. وربط على بطنه الحجر من الجوع ..!!

وكان إذا سار فى الطريق ، ومعه أصحابه ، دعاهم ليتقدّموا عليه ..

وإذا قدم عليهم ، وهم جلوس ، جلس حيث انتهى به المجلس ..

وكان يقول لهم دائماً ، حين يدعونه لتكريم خاص :

« إنى أكره أن أتميزَ عليكم » . . !!

هذا ، هو الصدق مع الحياة . .

أن نعيشها ، عادلين ، طيبين ، واضحين ، ودُعاء ، بُسَطاء . .

وأن نمارس مسئولياتها ، ونعانق واجباتها ، لا أن نتبذّخ بما فيها من فراغ وتَرَف وجاه . .

اقرأوا . .

« .. وفيما كان يسوع صاعداً إلى أورشليم ، أخذ الاثنى عشر تلميذاً على انفراد فى الطريق .

« وقال لهم : ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة ، والكتبة ، فيحكمون عليه بالموت .

« .. حينئذ ، تقدمت إليه أم ابنى زبدى مع ابنيها ، وسجدت ، وطلبت منه شيئاً ، فقال لها : ماذا تريدين . . ؟ قالت له : أن يجلس ابناى هذان — يعقوب ، ويوحنّا — واحد عن يمينك ، والآخر عن اليسار فى ملكوتك . .

« فأجاب يسوع وقال : لستما تعلمان ما تطلبان .

« أتستطيعان أن تشربا الكأس التى سوف أشربها أنا » . . ؟؟!!

ما أجزلها من عبارة ..!!

فالحياة ، ليست منصباً فَخْرِيًّا ، ولا وُجُوداً شَرَفِيًّا ..

إنما هى عمل جسيم دائب صادق ..

وهنا نلتقى بعلاقة أخرى من علاقاتنا بالحياة .

* * *

إنها العمل ...

والحياة بغير عمل ، تفقد ذاتها .. فهى عمل مستمر ، وصاعد ..

هى حركة أزلية ، وأبدية خالدة .. كل شىء فيها يموج بالحركة والمثابرة ..

هذه المياه الجارية .. هذه الرياح السارية .. هذه الأشجار ، والأزهار.

بل هذه الصخرة التى تبدو جامدة .. والخشبة التى تحسبها خامدة .

كلها ، وكل أشياء الحياة تُزاول حركة دائبة ، ونشاطاً موصولاً .

ولكن العمل قد ينحرف ، فيفقد على الفور مزيته ، وقيمته .

من أجل هذا ، عنى « خُبز الحياة » كما عُنى « صديقُها » بأن يُزكيا جميع الخصائص التى تحتفظ للعمل بقيمته وبنقائه .

لقد أرادا للعمل أن يكون دائماً :

جليلا ..

نافعًا ..

مستمراً ..

صاعداً ..

فالعمل الجليل ، النافع ، المستمر ، المُوَلَّى وجهه شطر الأمام . . لا الزاحف إلى الخلف ..

هذا العمل يمثل أسمى واجباتنا ، كما يمثل علاقة كبيرة من خير علاقاتنا بالحياة ..

وجلال العمل ، يعنى الارتفاع بقدراتنا إلى مستوى الكمال الميسور .. حتى نحقق بها عظائم الأمور ، ولا نقنع بصغارها ..

يقول الرسول فى هذا :

« إن الله يحب معالى الأمور . . ويكره سَفْسَافها ».

ويقول المسيح ، مطالباً الناس بمزيد من العمل ، وبعيد من الهمة :

« كل من أعطى كثيراً .. يُطْلب منه كثير » ..

ويقول محمد :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » ..

ويُحَذِّر من الأعمال الناقصة المبتورة ، ويؤثر العمل المستمرّ ، ولو كان قليلا ، على العمل الأبتر ، ولو كان كثيراً .. ويضرب لهذا مثلا جميلا حين يقول :

« .. فَإِنّ المنْبَتّ ، لا أرضاً قطع .. ولا ظهراً أبقى » . . !!

وهو يريد من العمل أن يكون واعياً .. وأن يكون فى خدمة التقدم الإنسانى .. ولا يكون انتكاساً أو ردَّة إلى الوراء ..

وإنه لعظيم باهر ، وهو يقول فى هذا ما معناه :

« يُذاد أُناس من أُمّتى عن الحوض يوم القيامة !
فأنهض لأشفع لهم ، فيقول الله لى :
« يا محمد ، لا تفعل .. إنك لا تدرى ما أحدثوا
بعدك .. فأقول : يا رب ، وما أحدثوا .. ؟
« فيقول سبحانه : إنهم كانوا يمشون بعدك
القهقرَى على أعقابهم » .. !!

والرسول — كما ذكرنا قبلا — وكذلك المسيح ، كانت دعوتهما حركة جديدة سائرة نحو المستقبل ، متجهة إلى الأمام دَوْماً .

وإنهما ليُجلان العمل ، ويهيبان بنا أن نرتفع به فوق كل غرض ردىء ، ونجنبه كل انحراف وزيف .

والإنسان الذى يقضى حياته فى عمل صادق نافع ، يصير موضع رعاية الله وتقديره ..

« لا أُضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أُنثى » .

ولقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا أحد أصحابه ، وحين صافحه ، أحس فى كفه خشونة .. فسأله :

« يا سعد ، ما بال كفّيك قد أمجلتا » .. ؟!

فأجابه سعد :

— من أثر (العمل) يا رسول الله .

فرفع الرسول كفّى سعد إلى فمه وَقَبّلهما ، ثم قال :

« كفّان ، يحبهما الله ، ورسوله » . . !!

* * *

هكذا ، كان برُّ محمد والمسيح بالحياة . .

لم تجمعها بهما عاطفة عابرة ، بل وعى رشيد ، وإدراك سديد لقيمتها ، ودَعْم هائل لكل القيم والقوى التى تبعث فيها الازدهار والتألُّق . . .

وعلى رأسها جميعًا ما ذكرناه — الحب — والعمل . .

ولقد عاشا حياة مُترعة بالحب ، وبالصدق ، وبالعمل . .

وكان لها مع الزمان رحلة من أمجد ، وأنفع ، وأبقى رحلاته .

واليوم ، ونحن نشيد من آمالنا ، ومن إصرارنا بناء عزم جديد قادر ، نريد أن نحمى به حياتنا من الدمار ، ننحنى إكباراً لهذين الرائدين الجليلين ولإخوة لهما سبقوهما بالإيمان وبالسعى ، من أجل أن تبقى الحياة مزدانة بأحياء مباركين .

وإذا كانت الحروب هى شر ما يَحيق بالحياة من خطر . .

وإذا كان « محمد ، والمسيح » قد أعلنا فى ولاء وإصرار ، حق الحياة فى الحياة . .

فإنه لمن الضرورى إذن ، أن نُبصر موقفهما من السلام ، وكيف أراداه ، وعلى أية صورة تمثّلاه . .

وإنه لمن الخير لأنفسنا أن نفقه جيداً الدور الذى قام به محمد وصاحبه لإقرار السلام فى الأرض .. وجعله شعيرة من شعائر الله ..!!

* * *

السلام ...

عندما ترنّ فى سمع الظامىء العطشان كلمة « ماء » ...

وفى سمع الجائع السّغبان كلمة « خبز » ..

وفى سمع المشرف على الغرَق ، المُتخاذل تحت ضربات الموج كلمة « شاطىء » ..

لا يكون لهذا الرنين مهما يكن صادقاً ، إلا قليلا جداً ، مما هو للرنين الصاهل القوى المفرح ، الذى تتركه فى عصر الذرّة كلمة « سلام » ..!!

ولو أن الحرب ، وحدها هى التى تتهدد وجودنا كله ، لهان الأمر ، أو كاد ..

غير أن الذى يحاصرنا بأخطاره الماحقة ، والذى تعتبر الحرب نفسها نتيجة له .. هو التفكير المُلْتاث المغرض ..

وإنى لأذكر الفزع الشديد الذى غشينى ذات يوم قريب ، حين طالعت خطاباً ، أو تصريحاً لرجل مسئول فى أوربا ، يشغل منصباً خطيراً ، يقول :

« لا بد من الحرب ، دفاعاً عن الحضارة المسيحية » ..!!

وقلت لنفسى يومها :

مسيحية ، وحرب ..؟؟

أى اتفاق « سعيد » هذا ..؟؟!!

إن هذه العبارة ، التى تقال فى عصرنا هذا ، المتحضِّر كثيراً ، والمتقدم جداً .. (!) لتشير إلى « الفضيلة » التى طالما تنكَّرت فيها « رذيلة » العدوان والبَغى ..

فمعظم الحروب التى أثخنت جروح الحياة ، كان لها منطق تسويغى ، وحجة تبرر قيامها ، وتمنحها المشروعية ، وجواز المرور ..!!

فباسم الدفاع عن الأديان تارة .. وباسم الحرية ، وحماية حقوق الإنسان تارة أخرى .. وباسم تمْدِين الشعوب المتخلفة .. وباسم المجال الحيوى للدول التى ضاقت الأرض فيها بأهلها ..

وباسم أشياء كثيرة ، كانت تبدو ، وكأنها منطقية وعادلة .. قامت حروب صبغت الأرض بالدم .. وغَطّت ترابها بالأشلاء والجماجم ..

وكان وراء تلك الحروب .. ووراء شعاراتها الكاذبة ، ذلك الذى أسميناه آنفاً .. بالتفكير الملْتاث المغرض ..

وهو « مُلتاث » .. لأنه يجهل إرادة التاريخ ..

و « مغرض » .. لأنه يُقاومها ويتحداها ..

أى أنه بتعبير آخر .. كان وراء تلك الحروب ، جهل بإرادة التاريخ ، وعصيان لها .

وهنا ، نضع أيدينا على « نقطة البدء » فى موقف محمد والمسيح من الحرب ، ومن السلام ..

وهنا ـ أيضاً ـ تَفْنى تلك الشُّبهات التى تُلقى فى رُوع الكثيرين منا ، أن لمحمد من الحرب موقفا يُغاير موقف المسيح . .

إن من يحترم الإنسان ، والحياة ، مثلما احترمهما المسيح والرسول ، لن يكون حرصه على السلام إلا عظيما .

فالسلام ، هو المجال الآمن الذى تترعرع فيه مواهب البشر ، وقدراتهم وهو السلوك الأوحد اللائق بأناس يجمعهم على الأرض عناء مشترك . . ورجاء مشترك .. وسعى مشترك ..

ناس ، أبوهم واحد .. وأمهم واحدة ..

ناس ، ليسوا ـ مهما يتباغضوا ويتباعدوا ـ سوى إخوة وأشقاء . .

من أجل هذا ، كانت أولى الحقائق الجديرة بأن يرتد إليها صوابهم ، هى ذى . .

ومن هنا ، بدأ المسيح وأخوه دعوتهما للسلام ..

قال المسيح لتلامذته :

« معلمكم واحد ، المسيح .. وأنتم جميعاً إخوة » .

وقال محمد :

« كونوا عباد الله إخوانا .. كما أمركم الله تعالى » .

ولم يكن « الأخاء » مجرد كلمة يُردّدانها . بل كان كما رأينا من قبل

وخلال عرضنا لموقفهما من الإنسان .. عقيدة ، وسلوكا .

لقد ذكرنا فى مبتكر هـذا الـكتاب أن حياة كل من الرسولين العظيمين ، كانت طاهرة ، لاشِيَة فيها . . ولم يحدث أن أخذ عليهما شىء ـ أى شىء ـ من التزيد والادعاء .

ولقد دعيا إلى الرحمة .. فـكان لابد أن يكونا رحيمين ودعيا إلى العدل ، فـكان لابد أن يكونا عادلين .

ودعيا إلى السلام ، فـكان لابد أن يكونا مسالمين .

ولقد كانا كذلك فعلا . . وعند أكثر مستويات الـكمال البشرى ارتفاعا عاشا حياتهما ، ومارسا دورهما الفذ العظيم .

إن أقوالهما فى السلام ، لمشرقة إشراق الصباح المبلل بقطر الندى .

وإن سلوكهما مع السلام ، لمجيد .

إن الناس يحاربون ، ليفرضوا مشيئتهم .

ولقد ألغى المسيح فرض المشيئة هـــذا حتى لو كانت مشيئة عادلة وفاضلة .

قال لتلامذته وهو يوصيهم :

« وأية مدينة دخلتموها ، ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا : حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتـكم ننفضه عنا » .. !

والناس يُحاربون من أجل الأرض يستعمرونها ، ويستغلونها

ولـكن استعمارهم هذا وغَلَبهم ذاك ، لن يدوما . . وسيكون للمسالمين الودعاء جميع المستقبل ، وجميع المصير :

« طوبى للودعاء ، لأنهم يرثون الأرض » .

وهو — أعنى المسيح — يضع مبدأ هائلا ، ورشيداً فى الملاقات الإنسانية ، فيقول :

« من ليس علينا .. فهو معنا » .

وينفر من الحرب نفوراً شديداً ، ويحذر من عُقباها ، فيقول :

« كل مملـكة منقسمة على ذاتها تخرب .. وبيت منقسم على بيت يسقط » .

ويحب الحياة وديعة ، مزدهرة ، حافلة بالمباهج والحب ، ويبث فى الأفئدة طمأنينة ، وأملا ، ويخفف عنها روعها ، ويتمنى للحياة عمراً طويلا فى هذه الـكلمات :

« إذا سمعتم بحروب وقلاقل ، فلا تجزعوا . . لأنه لابد أن يكون هذا أولا .. ولـكن لا يكون المنتهى سريعا » ... !!

كم هى عذبة ، وطيبة ، ومتفائلة ، كلماته الحانيات هذه .. « لا يكون المنتهى سريعا » .. ؟؟ !!!

وما ترك — ابن الإنسان — ثغرة ، تستطيع البغضاء ، ويستطيع

الشر أن ينفذا من خلالها إلى الحب ، وإلى السلام ، إلا أوصدها ، وتحاماها .

ومن الحب ، والسلام ، والإيمان ، والطهر ، شاد حول الحياة سياجا لا يرام .

فدعوته المضروب على خده الأيمن ، أن يعطى لضاربه خده الأيسر .

ودعوته من اغتصب رداؤه ، أن يترك الإزار أيضاً .

وتحذيره الجاجل ، للذين تجيء منهم العثرات المفنية لهذا العالم .

وإعلانه ، أن « كل من غضب على أخيه باطلا ، يكون مُستوجب الحكم » .

وقوله :

إن أعثرتك يدك فاقطعها »

« ماجئت لأهلك . بل لأخلص».

« أريد رحمة .. لا ذبيحة » .

كل هذا الهدى ، سياج منيع أقامه المسيح حول الحياة .

إنه لم ينتظر حتى يسيء الناس إلى الحياة بالقتل .. فتلقاهم دون ذلك بأبعاد بعيدة .. تلقاهم عند الغضب — مجرد الغضب — وصاح : هذا قتل .. !!

فهل يعلم هذا — جيداً — الذين يؤمنون بالمسيح فى زماننا ، إنه لخليق بهم أن يعلموا .. !

وخير لهم ألا يضلوا فى زحمة البغضاء والطمع ، عن كلماته المضيئة . . ومشيئته السديدة .

* * *

ولمثل هذا الذى يعمل من أجله العاملون . . عمل إنسان من أكثر أبناء الحياة برًّا بها ، وغيرة عليها .

إنه « محمد » .

لقد وقف يبلغ عن ربه فى ولاء الصادقين ، ويقين المرسلين أنه :

« من قتل نفسا بغير نفس ، أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً » .

انظروا ...

إن الحياة لا تتجزأ .

ليس هناك حياة لى .. وحياة لك.

إن الحياة كائن واحد . . وأى مساس بأى جزء منها ، مساس بها كلها ، وعدوان عليها جميعها .. !!

وكما اعتبر المسيح البغضاء كالقتل .. اعتبر محمد القطيعة قتلا ، فقال محذرا منها :

« من هَجَرَ أخاه سنة .. فهو كسفك دمه » .. !!

وإنه كذلك ليعلم أن الناس يتحاربون ويتقاتلون من أجل الأرض يستعمرونها ، فيحمى السلام من هذا السبب .. ويعلن أن من غير

تخوم الأرض لينال شبرا ، ليس له فيه حق ، برئت منه ذمة الله ، ورسوله .. !!

ويختصم إليه اثنان : غرس أحدهما نخلا فى أرض الآخر .. فيقضى لصاحب الأرض بأرضه ، ويأمر صاحب النخل أن يخرج نخله منها .. فتضرب أصولها بالفئوس فورا .. !

ويقول فى حديث زاجر عظيم :

« من اغتصب ـ شبراً ـ من أرض طوّقه إلى سبع أرضين » .

ويعطى هذا المعنى مزيداً من التوكيد ، لعلمه بما يجره الغصب والطمع من شقاق ، ونزاع ، وقتال .. فيقول :

« من اغتصب مال أخيه بيمينه — أى بالقوة — حرم الله عليه الجنة ، وأدخله النار . . »

سأله سائل : يا رسول الله ، وإن كان شيئاً يسيراً . ؟

قال : «وإن كان عوداً من أراك » !!

ويسأل محمد — كما أسلفنا — عن أفضل الأعمال ، فيجيب :

« بذل السلام للعالم » .

ويربط الأيمان بالحب ليُنشئا معا سلاما للحياة وأمنا .. فيقول :

« والذى نفسى بيده ، لا تؤمنوا حتى تحابوا . . ألا أدلكم عن شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ . أفشوا السلام بينكم » .

ويرفع السعى من أجل السلام إلى مكانة تفضل جميع العبادات فيقول فى حديث رائع :

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة ، والصيام ؟
إصلاح ذات البين » ! !

ويستبعد كل أسباب الشجار ، حتى التافه الضئيل منها ، فيقول :

« إذا مر أحدكم فى مجلس ، أو سوق ، وفى يده نبل
فليأخذ بنصالها لا يخدش بها أحداً » . . !

ويبلغ عن الله سبحانه قوله :

« ادفع بالتى هى أحسن السيئة » .

ويسأل سائل :

يا رسول الله ، دلنى على عمل ، إذا عملته أكون قد فعلت الخير جميعاً .

فيجيبه الرسول عليه السلام ، « لا تغضب » . . !

لقد تتبع الرسول كل أسباب البغضاء ، والحرب ، فى سلوك الفرد ، وفى سلوك الجماعة فكافحها ، ونهى عنها .

ولعل سائلا يسأل :

إذا كان محمد قد أنزل « السلام » من قلبه ، ومن شريعته هذا المنزل الرفيع .. فكيف إذن حمل سيفه وحارب .. وكيف إذن ، جعل الجنة تحت ظلال السيوف ؟ ! !

سؤال عادل ، ومنطق أمين . .

والإجابة عنه ترجع بنا إلى نقطة هامة بدأنا بها حديثنا عن السلام . . إذ قلنا : إن الحروب تنشأ دائماً ، أو غالباً من سبب واحد ، هو جهل إرادة التاريخ ، ومقاومتها .

حيث يوجد هذا السبب ، يوجد لا محالة تحفز وحرب .

ذلك أن التاريخ ، الذى هو تطور إنسانى زاحف ، لا راد لسيره .

التاريخ هذا . . ماض بالحياة إلى غايات جديدة دائماً .

وكل مرحلة جديدة منه ، تفرض نفسها بقوة الميلاد ، وبقوة الضرورة التاريخية التى أهابت بها لتجىء .

كما أن مرحلة قديمة مائلة للغروب ، تحاول التشبث والبقاء .

وتصطنع كل مرحلة لنفسها مؤمنين من الناس وأنصارا . .

وهنا يقف الجديد ، والقديم وجها لوجه ..

وحيث تكون هذه المواجهة تكون الثورات ، وتكون الأحداث الكبيرة .

وكلما أمعن أنصار المرحلة الآفلة فى جهل إرادة التاريخ ، وفى مقاومتهم لوليده الجديد ، يكون الصدام أمرا محتوما . .

وهذا ما حدث أيام الرسول عليه السلام .

قامت حروب .. كان سببها الجهل بإرادة التاريخ ، ومقاومة هذه الإرادة . .

ولم تأت المقاومة من جانب محمد . بل من الجانب الآخر المعادى له .

أما محمد ، ودعوته .. فقد كانا يمثلان الجديد القادم .. يمثلان إرادة التاريخ نفسها . .

وهذا واضح تماما ، من ظروف الدنيا أيام بعثته ، ومن طبيعة دعوته التى جاء بها . . ولقد أشرنا لهذا فى الفصل الثانى من فصول الكتاب .

أنا لا أحاول هنا الدفاع عن الرسول ، ولا أحاول تبرير نضاله . . فليس فى حياته العظيمة كلها ما يدعو لمثل هذه المحاولة .

وإنما أحاول افتراض أن « السلام » نفسه تجسد وصار إنسانا .

فماذا كان هذا الإنسان صانعا تجاه الظروف المعادية التى ناوأت محمدا . .

إن الإجابة عن هذا السؤال يسيرة ، إذا نحن أدركنا المفهوم الصحيح للسلام ..

فالسلام ليس هروبا من المسئولية .. وليس إذعانا لقوى الشر ، وليس مسايرة للخطأ .. وليس عجزا عن الاختيار ، والممارسة ..

وبعبارة واحدة : السلام قيمة تعبر عن نفسها بالإيجاب ، لا بالسلب .

وأكثر الناس تقديراً للسلام ، وحاجة إليه ، رسول جاء يدعو إلى عبادة الله ، وتزكية النفس ..

إن السلام يمثل « الوطن » لدعوة من هذا الطراز ..

ولقد لاذ محمد بهذا الوطن .. لا يريد من الناس سوى أن يتركوه يبلغ كلمات ربه .. ويمارس واجباً يملأ نفسه ، ويدعو دعوة لا تقاوم ، إلى التبشير به ، والعمل فى سبيله .

وسارع ، فأعلن « تعايشاً سلمياً » عادلا .

« لكم دينكم .. ولى دين » .. !!!

ولكن أعداء التاريخ ، لم يتركوه ، ولم يمهلوه ..

لم يذَرُوا دنيئة إلا ارتكبوها معه ..

حصبوه بالطوب ..

سلطوا عليه سفهاءهم ، فغمروه بروث البهائم ، وهو ساجد يناجى ربه

حاصروا أهله ، وعشيرته حصاراً اقتصادياً خانقاً .. !!

مارسوا شر الجرائم وأرذلها ، مع الفقراء والمستضعفين الذين اتبعوه .. !!

ثلاث عشرة سنة ، قضاها وسط مؤامرات لا تهدأ ، واعتداءات لا ترعوى .. وهو فى صبره ، وفى حلمه ، وفى السلام الحق الذى يريده ويحبه ، ويتمنى دوامه ..

يمعنون فى إيذائه ، وفى الكيد له .. فيمعن هو فى الصفح عنهم ، وفى الدعاء لهم .

ولا تشغله جراحه الثاغبة ، وآلامه اللاهبة عن الابتهال من أجلهم

« اللهم اغفر لقومى ، فإنهم لا يعلمون » .. !!

لنتأمل جيداً كلمة ـ لا يعلمون ـ فإنها تمثل إدراك الرسول لحقيقة المشكلة ـ جهل أعدائه بإرادة التاريخ ؛ التى هى إرادة الله من قبل .

وما داموا ـ لا يعلمون ـ فإن واجب الرسول أن يعلمهم ..

وهنا يتضح السر العظيم الجليل فى صبر الرسول عليهم ثلاثة عشر عاما ..

ويستبين فهمه الرشيد لحقيقة السلام ، الذى هو إيجاب ، لاسلب . . ومواجهة ، لا هروب .. !!

لقد كان محمد ، وهو يصبر على أذاهم ، ويعلمهم ، يمارس سلاماً حقيقياً ، فهو لم يحلم عليهم ، ويصبر على هولهم .. خوفاً أو استسلاماً .

بل ، لأنهم لا يعلمون .. وعليه أن يعلمهم ..

لا يبصرون .. وعليه أن يفتح عيونهم ..

وهذا ، هو السلام ..

السلام الإيجابى ، الذى يواجه مسئولياته ، دون أن يحمله العدوان على الهروب ، ولا على المقاومة غير المشروعة .. !

ولكن هؤلاء ـ الذين لا يعلمون ـ يستنفدون ـ آخر الأمر ـ كل حقهم فى المعرفة ، وكل فرصتهم فى السلام ..

ذلك أنهم يصرون إصراراً وبيلا ، لا على التشبث بباطلهم فحسب .. بل وعلى خنق الدعوة وإبادتها .

وقرروا قتل محمد عليه صلاة الله وسلامه ..

وحتى بعد هذه الجريمة السافرة ، لم يشأ الرسول أن يقاوم .. على الرغم من أن المقاومة آنئذ ، صارت حقاً مشروعا له ، بل وصارت تعبيراً آخر عن العدل ، وعن السلام ..

لم يشأ أن يقاوم ، وهاجر إلى المدينة ..

ومن المدينة سارت الأحداث في الطريق الذى جعل المقاومة محتومة ولازمة ..

لم يقاتل الرسول ، حين قاتل ، من أجل توسع ، أو امتلاك ، أو سيادة بل حصر جهاده « فى سبيل الله » .

وعبارة « فى سبيل الله » هذه .. تمثل الإطار الذى خاض الرسول المعركة داخله .

ولا يكاد شىء يكشف عن ولاء الرسول للسلام ، مثلما يكشفه سلوكه فى الحرب .

فعلى كثرة الغزوات التى خاضها ، لم يكن عدد الضحايا فيها جميعاً ، سوى بضع عشرات من كلا الفريقين .. !

وحين علم يوماً أن ـ خالد بن الوليد ـ أسرف فى القتل فى بعض غزواته ، جلجل غاضبا ، ورفع يديه إلى السماء معتذراً إلى الله ، ضارعا وهو يقول:

« اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ، اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » ..!!

ولقد كان أمره لأصحابه بين يدى كل معركة :

« لا تقتلوا امرأة » .

« ولا شيخاً » .

« ولا وليداً » .

« ولا تحرقوا زرعاً » .

« ولا نخيلا » .

« ولا تنهبوا » .

« ولا تمثلوا بأحد » .

« واجتنبوا الوجوه ، لا تضربوها » . !

* * *

وكما جاء عيسى ليكمل الشريعة .. جاء محمد ليستأنف المسير .

ولقد كان « الصليب الكبير » الذى أعده المجرمون للمسيح .. يتراءى للرسول دوما ..

وما كان من الخير أن يُمكَّن المجرمون من انتصار جديد . . يتلمظون فيه بدم رسول شهيد .. !

ما كان من الخير أن تخنق دعوات الهدى فى المهد ، كل مرة .

وإذا كان المسيح ، قد حمل « صليبه » من أجل السلام .

فإن محمداً ، قد حمل « سيفه » من أجل السلام .

كلاهما ، سيف .

الصليب الذى حمله المسيح ، سيف ، أراد اليهود أن يقضوا به على « ابن الإنسان » ورائد الحق ..

وسيف محمد ، سيف ، أراد محمد أن يقضى به على أعداء الإنسان ، وأعداء الحق .

وغاية الرسولين واحدة .. السلام .

فى دور المسيح ، كان السيف مُسلطاً على الحق .

وفى دَوْر محمد ، كان السيف مُسلطاً على الباطل.

وفى سلوك المسيح ، عبر السلام عن نفسه بالرحمة ..

وفى سلوك محمد ، عبر السلام عن نفسه بالعدل .

وهكذا استكمل جناحيه اللذين يحلق بهما عالياً ..

والرسول لم يحترف القتال ، ولم يكن له هواية . .

وإنه ليعلم أصحابه ، ويرسم لهم الحدود المشروعة للنزال :

« أيها الناس . .

« لا تتمنوا لقاء العدو . . »

واسألوا الله العافية . .

« وإذا لقيتموهم ، فاصبروا » .

أرأيتم .. ؟؟

إنه إنسان ودود ، مسالم .. لا يريد لقاء العدو ، ولا يتمناه .

وإنه ليسأل الله فى ضراعة ، أن يباعد بينه ، وبين هذا اللقاء .

ولكن ، إذا اضطره إليه واجب الدفاع عن الحق ، وتأديب الباطل فسينهض من فوره ، ويصبر على مشقات النضال .. !!

ولقد عاش المسيح ـ فى دعوته ـ ثلاثة أعوام .

وعاش محمد ـ فى دعوته ـ ثلاثة وعشرين عاماً ..

وعلى الرغم من قصر الزمن الذى عاشه المسيح داعياً ، وعلى الرغم من تشبثه بالتسامح المطلق .. فقد كانت مكايد المتربصين به تشد زناد غيظه ، فيزجرهم بكلمات شِداد .. ويكاد — أحيانا — يجنح إلى القصاص ، ويشيد بالقوة العادلة . .

فهو — مثلا — يقول :

« إذا شتمك أخوك ، فوبخه .. فإن تاب فاغفر له ».

ويقول : -

« حينما يحفظ القوى داره متسلحاً ، تكون أمواله فى أمان » .

وكثيراً ما نراه ، وهو يخاطب — أولاد الأفاعى — يحتدم غيظاً . . وكأنه يرغب فى أن يضربهم ، ويدحرجهم على الأرض ، كما فعل بموائد الصيارفة ، وأقفاص الباعة حين دخل الهيكل .. ولكن إدراكه العميق لدوره .. وإيمانه بأنه جاء الدنيا ليلقى عليها درساً عظيما فى التسامح والمحبة جعلاه يكظم غيظه ، ويشرب كأسه فى سلام .. !!

قال لمن أراد أن يدافع عنه بسيفه ، حين هاجمه أعداؤه ليلا ، ليأخذوه إلى رؤساء الكهنة ، كى يحاكموه :

« رُد سيفك إلى مكانه . . أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشاً من الملائكة .. ؟؟

« فكيف تكمل الكتب .. ؟ إنه هكذا ينبغى أن يكون » !!

أجل .. هكذا ينبغى أن يكون .. ما دام قد جاء ليعلم الناس ، كيف يمكن للحب أن يتفوق على الكراهية ، وللسلام أن ينتصر على المؤامرة .

* * *

وبعد .. فهكذا كان ولاء محمد والمسيح للحياة ..

وهكذا كان موقفهما مع السلام .

لقد حملا تبعات الوجود .. وأديا أمانة الحياة على نسق جد عظيم .

وعلى الطريق الذى سارا عليه ، لا تزال كلماتهما ترسل ضياء باهراً ، ولا تزال الدنيا تجد سكينة وأمناً ، فى كلمات المسيح :

« سلاماً ، أترك لكم » ..

وفى كلمات محمد :

« كونوا عباد الله إخواناً » ..

الفصل السادس

والآن ...

بَارَابَاس .. أَمِ المسيح .. ؟؟

عندما قاد اليهود فى أورشليم روح الله عيسى إلى « بيلاطس » الحاكم الرومانى ، مطالبين بصلبه .. أطل « بيلاطس » عليهم ، ومضى يحاورهم فى شأن المسيح ، إذ كان يعلم أنهم يريدون إسلامه للموت حَسَداً من عند أنفسهم . . !!

قال لهم : « ماذا فعل يسوع ، الذى يُدْعَى المسيح » . . ؟؟

وأجاب اليهود ، ورؤساء الكهنة : « إنه يفسد الأمة » . . !!

وقال بيلاطس : « إنى لا أجد علّة فى هذا الإنسان » . .

ونبحت كلاب أورشليم نافذة بنباحها من الزاوية الحادة ، التى تحرج « بيلاطس » وتكرهه على الإذعان لنباحها .

قالوا : « إنه يهيج الشعب .. ويمنع أن تُعْطَى جزيةٌ لقيصر . وإذا لم تصلبه ، فلن تكون محبًّا لقيصر » . . !!

وقال بيلاطس : « إننا الآن فى العيد وسنطلق كما هى العادة واحداً من المحكوم عليهم .. فليكن هو المسيح » . .

وتهارشَ رؤساء الكهنة ، وتراكضَ يهود أورشليم كالخراف الضالة .. وصاحوا جميعاً : « لا .. لا .. أطلق سراح « باراباس » ، أما المسيح ، فاصلبه » . !

ويلح « بيلاطس » كى ينزلوا عند رأيه ، فيقول لهم : « لقد فحصت

هذا الإنسان قُدَّامكم ، ولم أجد فيه علّة ، ولا هيرودس أيضاً ، وجد فيه شيئاً مما تشتكون منه » . .

ولكنهم يَلْوُون ألسنتهم كأذناب الحيَّات ، ويصيحون :

« خذ هذا .. وأطلق لنا باراباس » . .

« باراباس .. باراباس .. أما المسيح ، فاصلبه » . . !

يقول إنجيل يوحَنّا :

« .. وكان — باراباس — لِصًّا » . . ! !

ويقول إنجيل لوقا :

« إنه كان مطروحاً فى السجن لأجل فتنة ، وقتل » .

ويقول إنجيل مرقس ، مثل هذا أيضاً . .

* * *

إن نفس الخِيار ، يُقَدّم اليوم ويعلن :

وإنه لمن حسن الحظ أن الذين يختارون اليوم ، ليسوا يهود أورشليم ولكنه العالم كافة .. والغرب المسيحى خاصة . .

لقد رفض أحْبار اليهود فى ذلك اليوم البعيد ، أن يختاروا المسيح ، لأنه جُماع فضائل لا يطيقونها . . ومشرق عصر عظيم لا يسمح لنقائصهم بالازدهار . . ! !

وحتى حين خجل ممثل روما العاتية الباغية ، أن يشترك فى المؤامرة

الدنسة ، وتوسل إليهم كى يَدَعوا للمسيح حريته .. رفضوا ، وصاحوا به .. بل باراباس ..

الحرية لباراباس .. والصلب للمسيح ..!!

ترى ، ماذا يكون جواب البشرية اليوم ، حين يطلب إليها أن تختار ..؟

إن محمداً رسول الله ، ليهديها إلى الجواب الحق .. ولقد سبق إلى الاختيار السديد ..

لقد اختار المسيح .. أى اختار فضائله التى جاء — هو — ليبعثها من جديد ..

فمنذ ألف وأربعمائة عام إلا قليلا ، وهو قائم هناك ، فى شبه جزيرة العرب ، يبلِّغ رسالات ربه ، أعلن أن المسيح سيعود .. وسيملأ الأرض نوراً ، وسلاماً ، وعدلاً ..!! هذا هو ، يقول :

« والذى نفسى بيده ، ليُوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم مُقْسِطاً » ..!!

ترى ، ماذا نفهم من عودة المسيح ..؟؟

إن الجواب يسير ، إذا عرفناماذا كان المسيح .

أكان ذلك الجسد الناحل .. والشعر المرسل .. والثلاثين عاماً التى سجلتها له على الأرض شهادتا الميلاد والوفاة ..؟!

كلا ...

إن المسيح ، هو دعوته .. هو المثل الأعلى الذى تركه وأعطاه ..

هو الحب الذى لا يعرف الكراهية .. هو السلام الذى لا يعرف القلق .. هو الخلاص الذى لا يعرف الملَكة . .

وعندما تتحقق هذه كلها على الأرض ، تتحقق فى نفس الوقت ، عودة المسيح . .

أجل ، إن المسيح الذى سيعود ، والذى تنبأ له الرسول بالرُّجْعَى ، هو هذا . .

هو السلام ، والحب ، والحق ، والخير ، والجمال . .

ونحن، مع « الرسول الأمين»، نصيح:

المسيح .. لا باراباس ..

الحق .. لا الباطل ..

الحب .. لا الكراهية ..

السلام .. لا الحرب ..

الحياة .. لا الفناء ..

وإنا إذ نرفع فى أيْماننا هذا الاختيار ، ليهدينا إليه وعى عظيم بحتميته ، وأفضليته ، وقيمته ..

ويهدينا إليه بصرٌ ثاقب باحتياجات عصرنا الذى يمزّقه القلق والخوف . .

وبصر ثاقب بالمصير المروّع الذى سيحيق بالعالم إذا كتب النصر مرة أخرى للصرخة السافلة التى تقول :

باراباس .. لا المسيح ...!!!

إننا نعرف جيداً ، ونذكر تماماً .. أن « مائة وخمسين مليونًا » من البشر ، ذهبوا ضحية الحربين العالميتين السالفتين . . ! !

« مائة وخمسون مليونًا » .. ما بين قتيل ، ومشوّه ، وجريح ، ومفقود . . ! !

قَتْلَى ميادين الحرب .. وقتلى معسكرات الإبادة .. وقتلى الغارات الجوية .. وقتلى الأوبئة التى تَذْرُوها رياح الحرب المنتنة . . ! !

« مائة وخمسون مليونًا » .. كانوا حصاد المشئم .. والحصاد الأليم ، لحروب خلقتها ، وأضرمتها ، الروح التى تؤثر « باراباس » . . وترفض « المسيح » . . ! !

الروح المكفهر القاتم ، الذى يرى فى الحرب صفقة .. وفى القوة امتيازاً .. وفى السرقة سيادة ، ونبلا . . ! !

الروح القائظ الملتاث ، الذى لا يحب الحب .. ولا السلام . . ولا الحق . .

تُرَى ، هل يسيطر هذا الروح ، وينشر على الحياة الجميلة ضبابه وظلامه . . ؟ ؟

تُرى هل يقتحم الأفق الوديع ، المشرق ، نباحَ الكلاب من جديد :

باراباس .. باراباس ..

أما المسيح ، فيصلب ..

أما السلام ، فيصلب ..

أما المحبّة ، فتصلب ..

هل يمكن أن يحدث ذلك مرة أخرى . . ؟ ؟

إن التفاؤل الصادق الذى ملأ به محمد رسول الله أفئدتنا ، ليجعلنا نجيب فى يقين راسخ : لا . . .

لن يحدث ذلك مرة أخرى . .

لقد أقسم «رسول الله محمد» أن المسيح قادم ؛ ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً . .

ونحن نؤمن بصدقه . .

ونؤمن بأن عودة المسيح هذه .. تعنى انتصار القيم التى كان المسيح يمثلها ، والتى قهر بها الرسول عالم الوثنية والظلام .

تعنى انتصار الإنسان ، وانتصار الحياة . .

تعنى سيادة الحب ، وسيادة السلام . .

* * *

عندما هاجم غوغاء اليهود بستان الزيتون ليقبضوا على المسيح ، تقدم من الحرس ، وسألهم :

« من تطلبون » . . ؟ ؟

أجابوه : « نريد الناصرى » ..

فقال :

« أنا هو .. ولست أسألكم إلا شيئاً واحداً » .

ثم أشار بيد أمينة حانية صوب تلاميذه الذين كانوا معه فى البستان ، واستأنف حديثه مع الحرس قائلا :

« أن تَدَعوا هؤلاء ، يذهبون لبيوتهم ، حتى أستطيع أن أقول لأبى حين ألقاه :

« إن الذين أعطيتنى ، لم أهلك منهم أحداً » . . !!

انظروا . . .

فى هذه المباغتة الشرّيرة المذهلة ، لم يذكر نفسه ، ولا حياته . . وإنما ذكر مسئوليته الكبرى تجاه الآخرين . . !!

لم يشترط لنفسه نجاة ، ولا سلامة .. وإنما اشترطها للآخرين . .

وذلك كى يستطيع أن يقول لربه حين يلقاه :

« إن الذين أعطيتنى ، لم أهلك منهم أحداً » . . !!

هذا هو روح العصر الذى يبشرنا محمد بمجيئه .. والذى نرقبه صابرين .. واثقين .. عاملين ..

عصر يتفوق فيه الإيثار ، والحب ، ويحمل الناس فيه مسئولية وعيهم ، وأمنهم ، ورخائهم . .

والواجب الذى سنذكره دَوْمًا ، كلما ذكرنا المسيح ، ومحمداً . . هو :

* أن نجعل لوجودنا الإنسانى حقيقة ، ومعنى . .
* وأن نخصّ الإنسان والحياة بالنصيب الأوْفى من تبعات رشدنا . .
* وأن يكون سبيلنا لهذا ، الحق القوىّ . . والمحبّة اليَقْظى . .

رقم الإيداع ٥٣٦٥
977- 01- 4434- 7

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيهان
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب